

إهداء

إلى تلك اللواتي عانين من زواج الإِجبار: اكسرن تلك القيود
الملعونة، انتصرن على لعنة العادات، انفضن عنكن غبار
البؤس، اضربن بأرجلكنّ عمق الأرض وانتصبن كالجبال.

منال عزالدين...

المقدمة

لقد أغمضت عيني منذ ثوان، بدأت أجذف في بحر من السواد، أنطلق في بحر من الأثير.. كالزئيش أطيّر بلا وزن، أبحر من دون وجهة، أشعر بأني أتلقت يميناً وشمالاً دون أن أرى شيئاً غير الحلّكة، أرفع يدي أمام ناظري.. لا شيء، أتحمّس أنفي فأجده هناك في مكانه.

فجأة يضيء المكان بضوء بغيض، يعمي العينين ويؤذيه فأتدثر بثيابي خشيةً، وبعد ثوان أحاول فتح عينيّ باحثة عن مصدر الضوء فأجدني في مكان غريب، لا أدري كيف أصفه، كأنها مغارة في كهف يعلو سقفه علو السماء، جدرانها أشبه بالمرايا بل هي قطع من الكرسنال غير المشكّلة، تتدلى على الجدران وعبر السقف العالي، تملكني الدهشة من كل تلك الروعة، تنعكس صورتي على قطع الكرسنال غير المشدّب فتظهر صورة منكسرة منقسمة إلى أجزاء عديدة لكنني أستطيع التّمييز بأن تلك الظاهرة في الصورة ليست أنا بل فتاة في غاية الجمال ترتدي فستاناً فخماً ويعتلي شعرها المُسرح تاجاً مُرصّعاً بالجواهر.. ينقلب المشهد في ثوان لأجدني جالسة على عرش عظيم، أظنه كرسيّ حكم أو ما شابه، بمساند مذهبة تزينها ورود فواحة بعطر غريب ولكنه جميل، يجاورني ذلك الرجل الأربعينيّ بجلسته الوقورة ولحيته المشذبة وتاجه العظيم،

ينحني أمامنا أناس بهيئات عجيبة مصطفين في طوابير بدايتها هنا ونهايتها في لا مكان داخل قاعة عرش لم أر في جمالها ورقيتها في حياتي بأسرها، أثاث مزخرف بقماش أحمر بديع وتمائيل مذهبة تمثل حيوانات عديدة معروفة لدينا وتمثال القط الفرعوني ينتصب في زوايا عديدة، ثريات بأحجام هائلة تتدلى من السقف والشموع تملئ المكان، الهيبة تعم المكان والسكون تلفه.

رفع الملك يده دون أن ينبس لينتصب الجميع فقام من مكانه يتبعه بعض خدمه فرأيت نفسي أنتصب لألحق به وتتبعني في أثري بعض النسوة يملمن خلفي فستاني ذا الذيل الطويل.

تحول المشهد سريعاً إلى لحظة عناق بيني وبين ذلك الملك الوقور في غرفة نوم واسعة أقلّب فيها نظري خفية بين أحضان الرجل لأجدها أجمل من أجمل غرفة ملكية قد تكون شاهدت صورتها يوماً على التلفاز أو صفحة مجلّة، ثم أمسك يدي بيديه الساخنتين تقريباً ورحنا نجلس على حافة السرير في صمت رهيب، أصوات أنفاسه الساخنة تعلو في صدره وتهبط عازفة في الجو الساكن سمفونية مخيفة، يخفق قلبي في حلقي وأزدرد ريقى بصعوبة، ألا يتكلم هذا الكائن ليبعث في الجو بعض السكينة!!

فبادرني على الفور كأنه سمع صوت أفكارى:

بل سأتكلم، هل ترضين بكلّ هذا!؟

قلت مستغربة:

بماذا؟!!

قال : بكل هذا وأشار بيده إلى أرجاء الغرفة وأكمل.. أن تصبحي أميرة، وقد تصلين إلى لقب السلطانة، فأنا أحبّ بنات جنسكن.
رحلت مع أفكاري بعيدة باحثة عن إجابة، أن أكون أميرة!!
ولكن من أنا إذن؟!
ماذا أفعل هنا؟!!

بحثت في غرف رأسي عن ذاتي لأتذكر شيئاً فشيئاً، أنا أدعى أيليف، أنا فتاة عادية.
صحوت من غفوة أفكاري، تمعّنت النظّر في يدي، هنالك ذلك الخاتم الغريب الذي أسرني، وهناك في اليد الأخرى الخاتم الرخيص الذي أعشقه ولم أنزعه عن يدي منذ أهدي إلي، تذكرت كل شيء في لحظات.
نظرت في وجهه الوقور الباسم لتسبقني دمعة منهارة تاركة إياي وحدي في المواجهة:
لا أستطيع البقاء جلالتك، هذا ليس عالمي.
فقال في هدوء صانعاً ابتسامة مطمئنة أكثر :
ستعودين، ستعيشين في عالمي كما لم تعيشي منذ ولادتك، ستشكريني لاحقاً على كل ذلك.

وراح يمسّد شعري بيده، ولكنني ومن دون وعي مني رحت أضمّ يدي التي تحمل الخاتم الرخيص على صدري وأدّفنه هناك، فكور قبضته وصارت يده تقذف ناراً وشراراً وصوت أنفاسه تحول جحيماً، مد يده إلى ذلك الخاتم الرخيص وأخرجه حتى كاد أن يخلع إصبعي عن محله ورماه بعيداً ثم أضاف :
انسي ذاك الخاتم، أنت هنا ستصبحين ملكة على أعظم المخلوقات، من بإمكانهم سحق بني جنسك عن بكرة أبيهم، ألا تحلمين بالقوة بالنفوذ؟!
اهتزت شفتي السفلى بالبكاء المكتوم :
لا أريد كل ذلك.

ترك جلوسه الساكن وانتصب كالجبال طويلاً، رفعت رأسي مصدومة فلا أجد تفاصيل وجهه لبعدها، صوت زمجرته تصم الآذان :
اللعنة عليك أيليف.. ستكونين هنا غصباً عنك.

ذات ليلة (1)

تك تك تك

صوتُ الثَّواني، المُخيف، صوتُ العُمر.. ثوانٍ مُنقضية، رنَّ جرسُ المُنبه، اهتز جسدٌ قريب، مُدت أصابع نحيلة، تخترق تلك الظلمة المزيّفة، حيث إن شعاع الشمس بدأ ينتصر، ويخترق النوافذ، أنفاس عميقة، وزفيرٌ ساخنٌ جُهني، جلست على حافة السرير، مُتعبة، منهكة، وكأنها لم تنم، مُحتملة كأرضٍ لا خلاص لها بسؤال البشريِّ التائه؛

" من أنا، لم خُلقت"، أرفع أجفاني الثقيلة بصعوبة، أتأمل شعاع الشمس الخجول وهو يغزو عُرفتي، ذاك عصفور يضرب بجناحيه على غصن الأرز المواجه للتأفذة، والرياح تطرق النوافذ بقبضتها، لكنها موصدة، تيارٌ هواء يتسلل رافعًا الستائر عاليًا، أنفاسٌ عالية تلتهم الأوكسجين بشراهة.

غطاءٌ ينفض في الهواء ثم يوضع في مكانه بترتيب وعناية، صوت الأقدام وهي ترتطم بالأرضية بخطوات متتالقة ناعسة، صوت الماء المتدفق وكفوف تضرب الوجه بالماء بخفة لتزيل آثار النوم، نظرات شاردة في المرأة المواجهة تجيب عن أسراب الأسئلة المهاجرة الباحثة عن مواطن دفئها، دُخان يتصاعد وصوت صغير إبريق الشاي الذي يعزف معزوفته الخاصة، زقزقة العصافير على حافة التأفذة، وكأنها تلقي تحية الصباح، وتستمع بعذوبة لصوت فيروز وهي تغني:

نسم علينا الهوا من مفرق الوادي..

ياهو دخل الهوا خدني على بلادي..

رائحة بيضٍ مقلي يعبق بالمكان وجهاز تحميص الخبز يدق منذرًا بانتهاء الوقت، صوت المعالق تطرق حافة الطبق مُمتزجًا بصوت احتساء الشاي الساخن. بدأت العمل، أنهيت شرب الشاي فحملت الأطباق إلى حوض الغسيل فتحت صنوبر الماء وتركته يجري عليها ليزيل بقايا الطعام، عدتُ إلى غرفتي من جديد، وقفتُ حائرًا أمام خزانة ملابس الحاوية على سترة، ثلاثة قمصان وزوج من البناتيل، هذا الكم الهائل من الملابس يجعل أيَّ شخص حائرًا في الاختيار طبعًا، مددت يدي إلى ذلك القميص الأبيض مع البنطال الزيتوني الذي يجعلني فاتنًا وأنيقًا، بضع دقائق أمام المرأة أجدف بموج شعري بيدي، لقد أعجبني ذلك الآن، فانحنيت لانتعال حذائي،

البنّي تاركًا أخاه الأسود رأفة بحاله، لكن ليوم واحد فقط، ثوانٍ قليلة، حتى ارتفع صوتي مُودَعًا:

مع السّلامة يا حاج.

صوت خطواتي وهي تضرب أرضيّة العمارة المتهالكة، صوت نزول السلالم، صرير الباب الصدئ وهو يحتكّ بالأرضيّة الصّلبة، مكوّنًا معزوفة معروفة لدى سكّان العمارة.

سحبتُ درّاجتي بيدي كطفلة، وخرجت إلى الحيّ المكتظّ، الأصوات تملأ الجوّ معلنة عن بدء يوم عصيب يملأه الصّخب، أصوات السيّارات والسّائقين كلّها تُعجّ بالمكان داعية الأولاد إلى التنجّي عن الطّريق، موقف الحافلات، وأجراس العربات الخاصّة ببيع الفطور الصّباحيّ.

قدتُ درّاجتي مترجلًا تاركًا الحيّ خلفي، وبين فينة وأخرى أحرّر يدي من مقبض الدّراجة، وأرفعها محيّيًا هذا وذاك:

مرحبا حج محمود

حج محمود: أهلاً يا ولدي، صباح الخير، كيف حال والدك؟

: صباح النور، بخير يا حج

حج محمود: الحمد لله، هل توجّه إلى عمله؟

: سينزل في أعقابي يا حج

حج محمود: هذا جيّد، لأنني أودّ محادثته في موضوع، توكل أنت إلى كليّتك يا ولدي.

أكملت طريقي محدثًا نفسي،

" لا يزال هناك وقت لدفع إيجار الشّقة، ما الذي يريده الحج محمود؟! "

أعادني من شرودي زامور سيّارة يلوّح لي سائقها، " هذا جاري عادل "

هاي، صباح الخير.

أكملت طريقي نحو الكليّة، أقوّد درّاجتي في زحام صباح بيروت الخانق، والشّمس الخجولة التي تطلّ بوجنتيها من وراء ستار الغيم الأبيض، أصوات تلاطم موج البحر مع الحزام الصّخريّ للشّاطئ، نسيم بارد يلفح وجهي فأشدّ ياقتي قميصي عليّ، ها هو الشّتاء يلوّح بالأفق.

وصلت إلى جامعتي، (الجامعة الأمريكيّة في بيروت) إحدى أعرق الجامعات في لبنان والعالم، كان حلمي أن أنتمي إليها، وأنهلّ العلم بين جدرانها، حلمت لليال، وسعيت

لساعات، وقد حققت حلمي بفعل درجاتي العالية في الثانوية، حصولي على مرتبة الشرف خوّلي الحصول على هذه المنحة الدراسيّة المجانيّة.

أقف أمام تلك البناية المهيبة، جدران تنتصب لقرن ونصف من الزمن، كل حجر فيها شاهد على قصة نجاح، كل سلم من هذه السلالم كان مُتَكَنًّا لأحدهم في الوصول إلى حلمه، تركت درّاجتي بعيداً، بجانب السّياج الذي يضرب الأرض وينتصب عالياً، كان الخجل من استعمالني للدراجة مقارنة بكل تلك السيّارات الفارهة للطلبة يكاد يطبق على أنفاسي، أقطع المساحات الخضراء الممدودة، والأشجار المقلّمة بعناية متوجّهاً إلى قسم هندسة العمارة أتابع وقع خطواتي تارة، وأدندن بموسيقى أحبها أرفع رأسي تارة أخرى، حتى تناهى إلى مسامعي صوت أحدهم يناديني :

رغيد، رغيد.

ألثفت لأجد زميلي يتوجه نحوي ملوحاً:

بيار، أهلاً
بيار: هل فقدت سمعك يا هذا؟، أنا أناديك منذ دقائق
رغيد: آسف جدّاً، لم أنتبه، كنت شاردّاً
بيار: ألا يفارقك الشرود، بم تفكّر؟!
رغيد: لا شيء مهم

عدّل بيار نظارته ورمقني بتلك النظرة المستفسرة:

لست متفائلاً.

ربّت على كتفه بيدي داعياً إياه لإكمال المسير:

أعتقد أنك نسيت أن تقول لي صباح الخير.

.....

داخل قاعة المرحلة الثانية وعلى مدرجات الطالبة يجلس مجموعة من الطلبة التي أنتمي إليهم اضطراراً، يتبادلون المزاح بقهقهة عالية في كل ثانية، دعني أصفهم ببعض الكلمات لا غير، هذان المتلاصقان أغلب الوقت: الشّقراء الجميلة (كارمن) والأصلع الضخم (ميشيل) متحابّان ويخطّطان لمستقبلهما معاً، تلك السمراء ذات الشعر الطويل الفاحم المسدل كأثّة ستار الليل

فهي الخليجية صاحبة الأملاك (جمان)، وهذا الذي يسبل لها بعينه طامعًا بالقرب هو (فادي) سليل إحدى العوائل اللبنانية الأرستقراطية التي حانت نهايتها، أما وجع قلبي فهذه العاقدة لجبينها المُخضَّب، تمضغ شفيتها تهكمًا وغيره من الاهتمام الزائد الذي يبديه فادي بجمان، تنسدل خصلات شعرها الأحمر على بشرتها المخملية فتزيحه بغضب تاركة المدرج مسرعة باتجاه الخارج، انتصبت أمامها كالطود محاولًا منعها :

انتظري.. انتظري بيلا، ما بالك تنتفضين كلبوة مجروحة؟!
بيلا: لا شيء رغيد، أودّ العزلة مع نفسي.
رغيد: بيل أرجوك لا تحزني.....
بيلا (صارخة): دعني وشأني.

ضربت المدرج بيدها وتركت القاعة راكضة تتبعها دموعها المتناثرة، كظمت غيظي وكورت يدي وابتعدت جالساً في نهاية المدرج، لو بقيت بالقرب من فادي لثوان إضافية للكتمته على وجهه، لكن عليّ السيطرة على أفعالي ولا سيما أنه يلعب على الحبلين، مع جمان بحضورها، ومع بيلا بغياب جمان، هذا ما يجعل بيلا في حيرة من أمرها معه، أضغط على رأسي بقوة أحاول تهشيمه، أودّ إيقاف سيل الأفكار هذه بلا جدوى، ولكن لحسن حظي دخل الدكتور لحظتها لتبدأ المحاضرة.

.....

لأني مشيت كثيراً في هذه الجامعة، صرت أحفظ طرقها وزواياها، كنهاية كل يوم دراسي، أتجول فيها بين الأروقة، حاملاً كتاباً بيدي، أمشي دون هدف معين.. ولا اتجاه، أقلب صفحات الكتاب بين فينة وأخرى، أبحر في أحداث رواية لكاتب هاو لم يلق الشهرة التي يستحقها، لطالما كان هذا ما استلذ به، الغرق في الموج الأول لبحر كلمات أي كاتب.

كنت ماشياً، أستمع إلى وقع خطواتي على أرضية هذا الجزء النائي من الجامعة، لقد أحببت العزلة.. أحببت الغوص في تفاصيل الكتاب الذي بين يدي، الرحيل عن هذا العالم إلى عالمٍ من الكلمات، حتى سمعت صوتهما، صراخها في وجهه ومحاولاته لاسترضائها، اقتربت أكثر، أخطو على رؤوس أصابعي؛ متتبّعاً مصدر الصوت، وصلت إلى ذلك المكان الذي يمكنني من خلاله استراق النظر، مددت رأسي في توجس، فرأيتها، محاصرة في ذلك الركن المنزوي، تلتصق بالحائط ليقابلها هو بجسده الضخم:

لمَ تفعلين ذلك بيلا؟! هل جننتِ؟ لمَ كل هذا الوجوم؟

بيلا: إياك أن تضع حبي في ميزان أو أن تجعل له مكافئاً أو معادلاً، ما تفعله مع جمان يكاد يذهب بعقلي، سأجن يا فادي.

مقرّباً يده من شفّتها.. محرّكاً يده نزولاً على عود عنقها الغضّ ناصع البياض:

بيلا.. بيلا، حبيبتي.....

تدفع بيلا يده في حنق ممزوج بكثير من الدلع :

أبعد يديك، فمزاجي لا يحتمل الألاعيب.

يعيق فادي حركتها مانعاً إياها من الإفلات، واضعاً يده على الحائط قرب خصلات شعرها المتطاير بفعل النسيم، يقترب أكثر متلمساً خدها المشرق كالشمس، يطبع هناك قبلته، وكأَيّ غازٍ طامع لن يتوقف هناك، بل ينزل نحو شفّتها المرتجفتين، يمسح بيديه انحناء خصرها ووركيها.. لتلتقي أعينهما، لتتقد شرارة الرغبة.

أغمضت عينيّ، أغمضتهدما بشدة، لم أعد أحتمل المزيد، تركت مكاني وأطلقت قدمي للريح، ركضت كما لم أفعل من قبل، ظلت تلك اللقطات تعيد نفسها في رأسي، كأسطوانة مشروخة تأبى أن تهرم وتتلاشى.

لم أنم ليلتها، جفاني النوم، انتفضَ راحلاً؛ تاركاً مكانه لحيرة تنهشني، أظفار الشّوق تمزّق قلبي، تغرس نفسها عميقاً، باحثة عن أثر لها، عن ذكرى.. تصبيرة عاشق، لكنه لا يجد شيئاً، فيقرّر أن ينسحب.. تاركاً مكانه ينزف.. ينزف بشدة.

قمر يطلّ عبر النافذة، يتحول في دقائق إلى وجهها الباسم ثم يأفل، في لحظات يعود القمر منيراً بريئاً كأنّ شيئاً لم يكن، كأنّه لم يذكرني بما أحاول نسيانه، أقلّب نظري صوب الحائط، أغمض عينيّ محاولاً الفوز ببعض لحظات النوم لكن أصوات تقبيلهما وحرارة أنفاسهما تأبى إلا أن تعيد نفسها، أفتح عيني بجحوظ لأجد صورة المشهد يعرض أمامي على الحائط، عقلي الباطن يحاول أن يعرض عليّ فيلماً، الصّداق والذكريات يتسابقان أيهما يصل أوّلاً إلى رأسي لتفجيريه.

الله أكبر.. الله أكبر

مع صوت الأذان المرتفع يختفي كلّ شيء، يسدل الستار على الفيلم ويتلاشى كلّ شيء في عالم النسيان، صوت خطوات والدي على الأرضية، خطوات ثابتة بطيئة، بالتأكيد سيتجه نحو الحمام، يتوضأ ويسجد لربّه شكراً.

جلست على حافة السرير لبرهة.. شردت في متاهات الفكر، وحينما عُدت، تركت مكاني متثاقلاً، أحمل نفسي وأجر أشلائي، ارتميت أرضاً بجانب أبي، انتظرتة كي يكمل صلاته، وحينما سلم نظر إلي بنظرته السقيمة تلك.. أشاح بوجهه ورفع يده إلى السماء، أجهشت بالبكاء وارتميت في أحضانه، طوقني بذراعيه وصار يمسد لي شعري بين يديه، مرت الثواني والدقائق حتى جفّت دموعي وسكت، رفعت رأسي إليه فقال لي:

ما بها سحب عينيك تلفظ غيثها يا ولدي؟!
رغيد: صمت يطبق على صدري يا أبتاه شوقاً لمن أحب، رغم اتساع الكون إلا أنه يضيق بي، ما عدت أحتمل جفاءها، كل ما يحيط بي يخيفني، يشعرني بالوحدة.
الأب: وما الحب إلا جحيم يختاره أحدنا بكل حبور، ولكنك يجب أن تكون قوياً وقوراً، ودع عنك الوحدة والنفور، كن وحدك حتى في الجمع، لا تبح بسرك حتى للريح،

يا ولدي الحبّ يضعف القلب الجريح، وإنا عانينا ما عانينا من البؤس، فنحن ورثنا البؤس وراثته، نحن محكومون بشريعة الغاب يا بنيّ كن قوياً، دع قلبك جانباً واسحق كل من يقف في طريقك، الحب للمترفين.. أما نحن فعلينا أن نسعى لنعيش ونأكل.
رغيد: ما للنار التي تسكن خوالجي أن تخمد، إنها تتلظى كلما رأت طيف الحبيب أو سمعت باسمه.

مد والدي يده ماسحاً حبة دمع سالت على طرف خدي وأضاف:

يا ولدي الحبّ فرس أصيل يعجبك قوامه وممشاه، لكنه يدوس تحت سناپكه كل من لا يعترف به، الحبّ يا ولدي مبادلة.. إن لم يعتلج قلب محبوبك ويكتوي بنارك فامض واتركه وراءك، فلا خير فيمن لا يشاركنا هياجنا وثوراتنا.
رغيد: وأنا لست مشتريها بالقوة، فلولا الحبّ ينبع من عيون القلب فلا عذوبة له.

ذات ليلة (2)

" ماما.. ماما، سوف يتأخر أنت عن المدرسة، ماما " سحبتُ وسادةً كانت تجاورني ووضعتها على رأسي، صرخت:

قلت لكِ عشرات المرات كفي عن مناداتي بماما.
: مدام، الوقت متأخر على الجامعة، المُنبّه يرنّ ويرنّ منذ زمن، ماما

أزلت الوسادة عن رأسي لأرمقها بتلك النظرة الحادة:

ليزا، كفي عن ذلك، اذهبي لتحضير الفطور، هيا اذهبي.

ليزا: ولكني حَضرت.....

رمىت لها الوسادة:

قلت لك غادري، خادمة غبية.

جلست على سريري أنفخ الهواء، لا زال النعاس يداعب عينيّ، لازلتُ نعسة، عاودت الاستلقاء، حملت هاتفي لأستذكر جدولي لليوم، محاضرتان، التبضع والاستعداد لحفل عيد مولدي، " لا أريد الذهاب إلى الجامعة، لم أنم جيداً.. " رسمت عليها ابتسامة رضا حين تذكرته، لم تستطع النوم جيداً بسببه، سهرت برفقته الليل بطوله، شاهدت فيلماً معه، رغم أن أذواقهما لا تتشابه، لكنهما اتفقا على أن يستمتعا معاً مهما حصل.

أنفاسه عبر الهاتف، طريقته في لفظ اسمي، أشياء جنونية.. - نعم يا عمري، فيتردد صوته عبر المكالمة (لا شيء حبيبي سوى إنني وددت سماع صوتك)، يطول الفيلم بسبب هاتفه المجنون، هو لا يعرف أنني كنت أوقف الفيلم لأسمع صوت أنفاسه تعلو وتهبط ويثور ويلهث حينما كانت المغامرة تجتاح شاشة الفيلم أمامه، حينما كان يستدرك وجودي.. يسألني أين وصل الفيلم، كنت أعد له الساعة والدقائق والثواني، يسألني متفاجئاً:
(لَمْ يتأخر الفيلم عندك، هل شبكة الإنترنت بطيئة)

فأبتسم في خبث وأجيب:

بطيء يا حبيبي، بطيء جداً

فيقوم بإعادة شريط الفيلم لنكمل معاً، وما إن يغوص في أحداث الفيلم حتى تتناهي إلى سمعي متممة حديثه إلى نفسه، يحث فيها البطل ويشجعه، أقوم بإيقاف الفيلم

من جديد وأهيم في صوت أنفاسه تعزف على أوتار قلبي، ينتهي الفيلم وحديثنا لا ينتهي أبداً، نغفو معاً، لا أذكر أننا أنهينا مكالمته، بل كان الاتصال ينقطع بسبب شبكة المحمول أو انتهاء البطارية، أنا أحبه.. أحبه جداً.

تدثرتُ بالغطاء وعدت إلى نومي، لأستعيد نشاطي، وربما لأتجهز لليلة إضافية برفقة (أمير)، وحينما أفقت كانت الساعة تقارب الرابعة عصراً، كنتُ قد تلقيت عشرات المكالمات، العديد منها من فادي السمج، مكالمتان من كارمن واثنان من أمير، طلبت الرقم وانتظرت الإجابة:

هلو، كيف حال حبيبتي الكسولة؟

: بخير حبيبي، لم أستطع الاستيقاظ باكراً

أمير: هذا يعني أنك لم تذهبي إلى جامعتك؟!

: لم أفعل حبيبي

أمير: جمان.. أريدك أن تكلمي دراستك وتعودي إلى الديار بأقرب وقت، لا أريد التلكؤ

جمانة: حاضر حبيبي.

أمير: ماذا ستفعلين الآن؟

جمانة: سأذهب إلى التسوق، لدي الكثير لأفعله، سأتصل بكارمن.

أمير: حسنٌ، وافيني بكل مستجد صغيرتي.

نهضتُ في تكاسل تاركة خلفي فراشي مبعثراً، حككت شعري المتناثر وجررت خلفي خفي الذي أنتعله، مددت رأسي عبر فرجة الباب منادية:

ليزاً، جهزي الطعام.

أخذت حماماً ساخناً أزال عني آثار النوم، لففت شعري بالمنشقة وتوجهت إلى المطبخ، عصافير بطني تزقزق جوعاً، كانت الخادمة قد جهزت لي بعض الكبسة والسلطة، ليس نفس الطعم الذي نأكله في الديار ولكن لا بأس فيما تصنعه هذه الزنانة، أكلت بشراهة حتى انقضضت على نصف صحن الأرز و صحن السلطة بأكمله، وكالعادة نسيّت وضع الماء فناديتها:

ليزاً، أريد ماءً.

جاءت تجر خلفها عود الماسحة، مدت يدها إلى الكأس فصرخت:

اغسلي يدك أولاً أيتها الغبية.

ليزاً: حاضر ماما

مدت لي يدها بكأس الماء فشربت حتى ارتويت، تركت الصحون الفارغة على المائدة عائدة إلى غرفتي، فرشت أسناني وقابلت مرآتي لساعة كاملة أتجهز فيها للخروج، بعض المكياج والإكسسوار والكثير الكثير من العطور، حملت هاتفي واتصلت بكارمن، نغمة الانتظار ترن، تووووت.. تووووت ثم التحويل إلى البريد الصوتي:
" كيف حالك كارمن، كنا قد تواعدنا أن نخرج للتسوق معاً، لا تقولي بأنك نسيت، أنا جاهزة وفي انتظارك، عاودي الاتصال بي سريعاً "
ثم أغلقت السماعة ووضعت هاتفي وما هي إلا لحظات حتى عاودت كارمن الاتصال بي :

ألو، هلو كارمن
هذا جيد، سأخرج حالاً، مسافة الطريق وأكون عندك.

مساء بيروت العليل، يداعب نسيمها شعري الكحيل، أقود سيارتي الـ Rolls Royce الرزنة وردية اللون بحشيتها الفضية في طريقي إلى كارمن لنذهب سوياً، متوجهين إلى شارع الفردان حيث يقبع مركز ديونز وأهم الماركات العالمية، مطرقة الطلبات تطرق في رأسي فأحاول تدوين احتياجاتي وألوياتي، أمد يدي إلى أحد الأزرار المتصلة بهاتفي لأتصل بكارمن نغمة الانتظار ثم صوتها :

هلا جمان، أين أنت؟
جمانة: قريبة جداً، انزلي إلى الشارع
كارمن: حسناً سأنزل.

أغلقت الخط وما هي إلا لحظات حتى كنا معاً، أوصلت كارمن هاتفيها بالـ wifi واختارت لنا أغنية بدأنا نرقص على أنغامها، نتمايل على وقع الـ pop للسماعات المضخمة للصوت الموجودة في السيارة، شاب يمد رأسه من نافذة سيارته سائلاً (إلى أين يا حلوين؟!)، والآخر يعرض على شفتيه، حادث سير قرب وجهتنا واضطرنا لترك سيارتي بعيداً وأثرنا المسير، وبعد ربع ساعة من السير على أقدامنا صرنا في منتصف السوق، ماركات عالمية تحيط بك من كل جانب إضافة إلى المقاهي وصالات السينما والبولينج.

ما يهمني أولاً الحصول على فستان شيك لسهرة عيد مولدي لذلك سحبت كارمن من يدها ودخلنا إلى معرض ماركة PRADA، تجولنا بين تلك الفساتين المعروضة، بتصاميمها الغريبة التي تتميز بها هذه الماركة، أعجبنى فستان رصاصي من الدانتيل المخرم بقميص ذي رقبة ضيقة وفستان عريض.

ارتديت الفستان ووقفت أمام مرآة عملاقة، الفستان جميل، بل بديع لكنه فاضح لا يناسب أصولي الخليجية، فهو مخرم في أغلبه والبطانة لا تغطي سوى منطقة الصدر والورك، ألتفت إلى كارمن لأجدها تضع يدها على فمها، لا أدري إن كانت صدمة أم إعجاباً، خلعتة وبحثت عن غيره فلم أجد.

خرجنا من المعرض متوجهين الى معرض ماركة CHANEL أقرب الماركات إلى قلبي، فهنا أجد عشرات القطع التي تعجبني لكن الحيرة تكمن في اختيار إحداها، وجدت فستاناً زهرياً من الشيفون ذي القميص العريض الذي يغطي أحد الكتفين ويترك الآخر وتنورة فضفاضة مختلفة الارتفاع تترك أحد القدمين عارياً عند المشي، أسدلت شعري الأسود الطويل على الفستان فزاد جماله جمالاً، سُحرت كارمن بالمنظر حتى أنا وفتت كالمشذوهة حتى تناهى إلى سمعي صوت أحدهم يصفق ويصفر خلفي، استدرت لأجده فادي السمج، اشتعلت نار الغضب داخلي لكنني تماكنت نفسي ورسمت ابتسامة عريضة على شفتي :

فادي، ماذا تفعل هنا؟

كارمن: أهلاً فادي.

فادي: كنت جالساً في مقهى قريب مع بعض الصحبة، فلما لمحتكما تمران آثرت تقفي أثركما، وها أنا ذا أمامكما، لكن ما كل هذا الجمال، أنتِ أجمل فتاة سمراء البشرة رأيتها عيناى

تصنعت الابتسامة، وقلت له في دلال، يكفي هذا يا فادي، أنت تبالغ.

" متى يرحمني أبي من الاستمرار في مجاملتك، فأعماله التي هو بصدد إنجازها في بلدك بمساعدة عائلتك الأرستقراطية هو أهم من قولوني الذي يهيج كلما رأيتك " هكذا كنت أفكر حينما مرر يده أمام عيني :

أين شردتِ، هل تسمعينني؟

كنت أقول بأنني سأبقى معكم، فليس عندي ما هو أهم من قضاء بعض الوقت مع الجميلتين جمان وكارمن.

جمانة : هذا جيد، سأخلع هذا الثوب.

حملت ذيل الفستان وتوجهت للمنزع حتى رفع صوته قائلاً :

هذا الفستان الذي ترتدينه جميل، أتمنى أن أراه عليكِ.

فاستدرت، ورمقته بتلك النظرة التي تقطر شراً وغضباً، فأبعد نظره وألهى نفسه بالحديث مع كارمن كأنه لم يكن يوجه الكلام لي، كتمت في نفسي ضحكتي ودخلت

منزع الملابس، لحظات ودق الباب.. كانت كارمن قد أعجبها فستان فحملته إلي، فستان أسود من خامة كريب جيدة الصنع، فستان من قطعة واحدة بصدر ضيق يتسع نزولاً إلى نهايته، حشية الصدر مزين ببطانة فضية من الكتر اللامع يصعد إلى الكتف الأيسر تاركاً الكتف الأيمن عارياً، أما من الأسفل فإن حشية الفستان ليست مستوية بل تميل من الركبة اليسرى نزولاً مغطياً الساق الأيمن مع وجود نفس البطانة الفضية، قطعة جميلة وغير مكررة.

ارتديتها ووقفت أمام المرأة، استدرت لأرى كل التفاصيل، لكن لم يعجبني ميلان الفستان من الخلف، لا أراه جميلاً، خلعتة ورحت أبحث أكثر، تعمقت في قلب المعرض، يستحيل أن أدخل معرض CHANEL وأخرج خالية الوفاض، ستجذبني قطعة بالتأكيد، وقعت عيناى عليها، شيء أشبه بفساتين أميرات ديزني، جمال الأساطير حين سماعها، فستان من التول البرتقالي المائل إلى البصلي، فستان مكون من قطعة واحدة تلف الجسد لفاً ذات أكمام طويلة، وملايين من أزهار ال Lilac الأبيض تزخر على الكتفين والصدر ويقل عددها تدريجياً وينتهي عند الركبتين، ذو ذيل واسع يبدأ من الخصر تتبعني وتراقص على وقع خطواتي على الأرضية، كنت أقف مشدوهة أمام المرأة من جمال هذا الفستان ودقته وكذلك أعجب كارمن والسمح فادي، عيب هذا الفستان الوحيد إن يافته مفتوحة تنزل لغاية السرة، هذا يعني أنني سأضطر إلى التعديل عليها، ناديت إحدى المساعدات ووضحت لها ما أريده من وضع قطعة من التول ببطانة لسد الفتحة لغاية الصدر، ووعدوني أنها ستكون جاهزة في غضون يومين، توجهت إلى قسم الأحذية والحقائب فلم أجد شيئاً يناسب الفستان الذي نويت ارتدائه، نقدتهم ثمن الفستان باستخدام الكريدت كارت التي توصلني إلى ثروة أبي حتماً.

انزاح هم كبير عن كاهلي حين أكملت تفاصيل الفستان، بقي الحذاء والحقيبة وأقراط أذن كبعض الإكسسوار، بعد بحث حثيث هنا وهناك وضعت يدي على حذاء ذي كعب عالٍ.. شفاف مزين بقطع الكرسنال الخرزية البيضاء في مقدمته بكثافة يقل عدده كلما توجهنا إلى الخلف، انحنى أحد العمال ليساعدني في قياسه، لكن فادي رفض إلا أن يكون هو من يقوم بهذه المهمة، فأبعدته بإيماءة مع ابتسامة حاولت جاهدة أن تكون طبيعية :

لا بأس فادي، سأقوم بهذا بمفردتي.

ابتسمت كارمن فغمزت لها من طرف خفي، كان الحذاء جميلاً وأنيقاً ومريحاً رغم علو كعبه أخذتها وعدت إلى CHANEL لأخذ حقيبة كانت قد أعجبتني ولم أجد لها

مناسبة ولكن بعد هذا الحذاء ستكون تلك الحقيبة مناسبة جداً، حقيبة صغيرة صندوقية الشكل مزينة بالخرز الفضي والرصاصي مع زهور من البصلبي الغامق، أما زرها فيحمل علامة CHANEL، هكذا أكون قد أتممت اللوك ولم يتبق سوى حلق الأذن الذي مسحت شارع الفردان محلاً محلاً ومعرضاً بعد آخر ولم أجد ما هو مناسب.

أسدل الليل ستاره وساد الظلام منذ زمن حينما قررت الكف عن البحث، سأحاول حل هذا الموضوع بعد أن آكل وجبة دسمة تشبع عصافير بطني التي علا صوتها، توجهنا إلى مطعم (t-marbouta) أحد المطاعم ذي الديكور الكلاسيكي الأحب إلى قلبي هنا في بيروت، فالديكور الذي يصور لك القديم ورائحة زهور النرجس العابق بالمكان يشعرك بدفء العائلة، كلما اشتقت إلى بلدي توجهت إلى هنا، على كل حال أنا أقضي معظم وقتي هنا، غطست في صحن الحمص بطحينة المزين بزيت الزيتون البكر، والتبولة والفتوش، أكلت حد التخمة وما إن انتهينا حتى أوصلت كارمن وعدت إلى داري منهكة القوى، دخلت المنزل فوجدته هادئاً، يبدو أن ليزا غرقت في سباتها، وضعت أغراضي وتوجهت إلى الحمام وفتحت الماء الساخن ليملاً المغطس ثم هاتفت أمير كي أطمئنه علي :

أمير: ما أخبار حلوتي ؟

جمانة: بخير حبيبي، أنا متعبة جداً، لففنا على كعوب رجلينا شارع الفردان ذهاباً وإياباً أكثر من خمس مرات.

أمير: ولم كل ذلك ؟

جمانة (وقد توردتُ خجلاً) : ألا تعرفنا، يصعب أن نتخذ قراراً بسهولة.

أمير: أعرفكم يا صغيرتي أعرفكم، ما هذه الجلبة عندك ؟

جمانة: أنا أضع ثيابي، أريد أن آخذ حماماً ساخناً، سأكلمك حين أنتهي، سأصور لك ما ابتعت، ولكن هنالك مشكلة سأحدثك عنها حينما أعود.

أمير: أنا أنتظرك لا تنامي

جمانة: لا أنام إلا معك حبيبي.. سأعود

أغلقت الهاتف وتوجهت إلى الحمام، غطست في الماء الساخن ففردت كل عضلة في جسمي نفسها وارتخت، أغمضت عيني وبقيت على هذا الحال قرابة الربع ساعة ثم أخذت حماماً سريعاً وخرجت ألف المنشفة على جسدي المبتل، عاودت الاتصال بأمير، الهاتف يرن ولكن لا مجيب، مكالمتان وثلاث، لا أحد هناك، آثرت ارتداء ملابسي ثم معاودة الاتصال، بينما أنا جالسة هناك أفرد خصلات شعري الطويل اهتز الهاتف برنين خافت، إنه أمير:

أين كنت حبيبي؟
أمير: في المطبخ، أحسست بالجوع
جمانة: وماذا أكلت؟
أمير: بعض التفاح الأحمر، وجلبت معي صحناً مشكلاً من الفاكهة، سأحتاجه في
سهرتي معك.
والآن ما المشكلة، قلت أن هناك مشكلة ما؟
جمانة: أجل، لم أجد قرطاً مناسباً
أمير: كل تلك المحلات ومعارض الماركات ولم تجدي شيئاً يا جمان؟!
جمانة: هناك الكثير، لكن لون الفستان غريب، البصلي الغامق مع زهور الليلك
البيضاء تزين قميصه، أريد قرطاً ضخماً بلون مناسب.
أمير: حسناً يا حبيبتي سأبحث لك عن قرط مناسب، ولا يليق الدلال إلا بصغيرتي.
جمانة: أشكرك يا أحن رجل مرّ على حياتي بطولها، والآن ما هو مشروعنا لليلة؟
أمير: قبل المشاريع، اشتقت إليك
جمانة: إذن.. ماذا تريد؟
أمير: أريد قبلةً تطير وتحط على شفتي.
جمانة (وقد التهبت وجنتاي خجلاً): يكفي هذا يا أمير، أنت تخجلني.
أمير: هل ستقبليني أم أقبلك؟
جمانة: لن أقبل أحداً
أمير: إذن أنا من سيقبلك.

وأرسل قبلة في الهواء ملأ صداها كبد المنزل الهادئ، ابتلعت لساني، كان صوت
أنفاسي فقط هناك يعلو ويهبط، حتى نبس من جديد ليمزق هذا السكون الذي خيم
على كليتنا:

هل أغمي عليك؟
أندرين.. أرى ذلك الوهج الذي يشع من حدودك الملتهبة خجلاً من موضعي هذا
جمانة: أنت ثقيل الظل.

فضحك ضحكة اهتز لها عرش قلبي.. وأكمل:

والآن ماذا سنفعل، هل سنشاهد فلماً؟
جمانة: لا أدري، أشعر بتعب شديد
أمير: لن تنامي فأنا أنتظرك منذ الصباح.
جمانة: إذن سنشاهد شيئاً قصيراً، اتفقنا؟
أمير: اتفقنا يا حبيبتي.

جمانة: أتعلم من رأيت اليوم؟
أمير: من؟
جمانة: فادي، لا عليك يا أمير، كان لقاء بالصدفة

وهكذا بدأت ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة مع سمو الأمير أمير ليتها بطول العمر كله.

ذات ليلة (3)

لا تستغرب حينما يكون نهارك بائساً ليأتي المساء فتجده أكثر بؤساً.. وأنت بانتظار ذلك الذي لن يأتي، تنتظره ليمسح بيده على وجهك صانعاً ابتسامة، عضلات وجهه باتت جامدة من طول الانتظار، أين هو.. لن يأتي، لم يعد موجوداً ثم تعود لتدفن نفسك بين أوهامك وأوجاعك وتعابيرك المفتعلة.

لا زلت أكتب الرسائل، وحين أحاول إرسالها تختفي الكلمات، كأن لم يكن لها وجود أصلاً، رسائل أستوحىها من ملامح وجهك فتتدفق كسيل من كلمات وتتشكل الأبيات بأجمل ما يمكن أن يقال لكنه لا يقال.. أو يقال فلا يسمع، لأن لا أذن لسامعها وإن كانت له أذن فلا قلب له، فحب يرسمه المال والنفوذ أهم من حب تخطه نبضات قلب.

جليسة الجدران أبحث عن حل لمعضلتي، ككأس من الألم فاض ما به على ما حوله.. حتى بُهت كل شيء، ذابت الألوان ورحلت، أهز قدي على الكرسي من فرط التوتر والتفكير، قمت متوجهة إلى حيث يمكنني أن أجد النصح، أجر قدي على الأرضية بخطوات رتيبة.. أعبّر الممرات إلى جرتي وصديقتي عائشة، الوقت متأخر لكنني أظنها لا تزال متيقظة، دققت الباب دقائق مضطربة، صوت وقع خطواتها خلف الباب، كانت عائشة تلك الفتاة المكافحة التي تعيش مع أمها العجوز وحيدة، تقرب رأسها من الباب هامسة:

من هناك؟
بيلا: أنا بيلا.. افتحي

فتحت عائشة الباب ووقفت هناك متعجبة:

هل هناك خطب ما؟
بيلا: أنا تائهة يا عائشة.. أحتاجك

تركت عائشة الباب مفتوحاً وابتعدت لأدخل:

لازلت تحاولين النجاة من المحيط متلاطم الأمواج ذاك، قلت لك مراراً.. ستغرقين يا بيلا ستغرقين.

دخلت الشقة وأغلقت الباب خلفي، وأردفت:

أحبه يا عائشة أحبه

عائشة: أنت لا تحبينه، أنت تحبين حياة الفلل والقصور.. تحاولين الخروج من المستنقع الذي أنت فيه، لكن ليكن في معلومك؛ من يرفع رأسه عالياً يكسر عنقه.

أخذت عائشة ترتب الوسائد على الأريكة وتحادثني ثم جلست وجلست جوارها فقلت:

نعم هو ذاك، علي أن أخرج من هذا المستنقع.. هذه ليست حياتي ولا مكاني، أكمل كليتي ودروسي بسرعة البرق لأعود في الحافلات المزدحمة الخانقة جرياً لأقف على قدمي في محل البقالة لحين انتصاف الليل لأجد ما أصرفه في اليوم الثاني، هذا ليس مكاني يا عائشة.

قمتُ وتوجهت إلى المرأة المثبتة على الحائط فوق الشوفنيرة، صرت أتطلع إلى صورتي المنعكسة في المرأة وأحادثها:

كان يجب أن أخلق أميرة، يُحضر ثيابي الخدم، تمشط شعري الوصيفة.. ثم يطل الأمير عبر بوابة الجناح يقترب مني، يمرر أصابعه على بشرتي البيضاء اللامعة، يلبسني قلادة من اللؤلؤ والأحجار الكريمة ثم يأخذ يدي خارجين من الغرفة ومتوجهين إلى الشرفة المطللة على حديقة القصر الممدودة على مرعى البصر لشرب الشاي.

استدردت إليها وتقدمت بخطوات واثقة أستعرض فيها حياة الإستقرارية التي تعشش في مخيلتي:

هذا ما كان يجب أن يحدث يا عائشة، هذا ما كان يجب أن يحدث.

ابتسمت عائشة تلك الابتسامة الساخرة وقالت:

لو كنت قد ولدت أميرة كان ذلك من حسن حظك أما وقد ولدت من عامة الشعب فإن دخولك إلى القصر سيكلفك الكثير.. الكثير يا بيلا، سيكون عليك أن تفرشي كرامتك كجسر يوصل بينك وبين القصر وقد يحملك هذا الجسر أو قد يهوي بك إلى عمق سحيق لن تقدرى بعده على الوقوف والمسير.
بيلا: بل سأقدر وسأصل.. أعدك بذلك

رسمت شبح ابتسامة على ثغرها قائلة:

وما المطلوب مني الآن، إنها الحادية عشر والنصف مساءً يا بيلا.

بيلا: أريد أن أجد حلاً، أحتاج إلى فستان فخم أرتديه في عيد ميلاد جمانة، يجب أن أكون أجمل منها وبأبهي طلة.

ضحكت عائشة وقهقهت حتى بان صف أسنانها كاملاً:

تريدين مجارة جمانة ابنة الخليج ووريثة الملايين؟
أنتِ تهذين يا بيلا.. حلمك بات أصعب مما كان بكثير، قلت لك مراراً دعيه يحب
بساطتك.. لا تحاولي تقليد حياتهم فهم ملوا منها.
بيلا: أرجوكِ كفي عن هذا وساعديني
عائشة: بَمَ أساعدك؟، أتعرفين.. فستاناً من الفساتين التي ترتديها جمانة تساوي
راتبك لمدة سنة بأكملها أو أكثر من ذلك بكثير.

جلست عند قدمها وتشبثت بها بقوة:

أرجوكِ ساعديني يا عائشة وساعيد إليكِ كل درهم سأقترضه، أرجوكِ
عائشة: تعلمين أنني لا أستطيع، فأمي تنتظر متبرعاً لإجراء عملية زراعة الكبد
بيلا: ساعيده إليكِ قبل ذلك.. أرجوكِ
عائشة: الحكم لله فيما ابتلاني به.

قفزت من موضعي فرحاً ورحت أطبع القبل في كل شبر من رأسها.. وجهها وعنقها
حتى باتت تدفع بي وتمنعني:

كفي عن ذلك يا مجنونة.

رحت أجلس بهدوء على حافة الأريكة وأضع قدماً على الأخرى وأميلها جانباً:

والآن ماذا ستلبس الأميرة بيلا.. ها؟، سأجلس هناك في معرض إحدى الماركات
العالمية، سيعرضون عليّ أغلى الفساتين لأختار أحدها، أشير لهن بأصبعي، هذا لا..
وذلك لا يعجبني.. تلك قماشتها رديئة.

تخفي عائشة ضحكتها وتقول:

ارتدي فستاناً أنيقاً ومرتباً، لا داعي لأن تبحي عن الغالي والماركة يا سمو الأميرة، فهذا
دليل على فرط تواضعك.

بيلا: لا فأميري يعرف كل الماركات ويحفظها عن ظهر قلب، أذكر أننا كنا مرة نحضر
لعبة في تصفيات كرة القدم بين الجامعات، كنت جالسة بجانبه أمسك يده وأنشبت

به بقوة، كانت هناك تلك الفتاة على المدرج القريب منا، جميلة هي لكن الحزن خلب
لها وعيناها الناعستان كانتا ممثلتين بحبيبات الدمع، طوال فترة اللعبة لم يبعد
عينيه عنها، كان يحدث نفسه ويهمس لها وما يصلني حين أسترق السمع لهمسه
كان يذبحني،
(تبدو حزينة جداً، من هذا الشقي الذي جرح كل هذه النعومة..... ماركة
PUMA..... تمسح دموعها)

كنت شبح أنثى تتشبث بقميصه، خنقتني الدموع ولكنني بدلاً من البكاء انفجرت
ضاحكة.. ضحكت وضحكت بشكل هستيري حتى صرنا محط أنظار جميع من على
الستاد، أخذ ينظر إليّ متعجباً:

ما بكِ بيل، ما يضحكك؟
بيل كفي، الناس يحملقون بنا
بيلا هل جننتِ؟!

كنت أضحك والنار تضطرم في قلبي وتتلظى، حملني وشدني من ذراعي وأنا أكاد أهوي
من فرط الضحك، ظللت أضحك الطريق بطوله، تركني تحت العمارة، حتى أنه لم
يكف نفسه عناء مرافقتي لأصل إلى الشقة وليطمئن علي. ترنحت ضاحكة كأنني
فقدت عقلي، زلقت قدمي على السلالم مرتين وكدت أهوي، وما إن دخلت بيتنا
وأغلقت الباب خلفي حتى عصف بي موج من البكاء، تخلت قدمي عني وهويت على
الأرض، غرقت في دموعي ليلتها، شعرت بأنني الفراغ والعدم.. شعرت أنني الكائن
البديل لتلك الصرخة التي أطلقها حلق أمي ليلتها.

رأيت والدي في أعتاب غرفته يحاول الوقوف متكئاً على عكازه، يترنح وقد تركت
أيادي الحزن على وجهه أثراً.. هرعت إليه، نظر إلي ودموعي تنساب على وجنتي،
حاول رفع يده إليها لإزاحتها لكنه لم يستطع، تكرر محاولاته ذبحني فزاد بكائي..
أسننته وأعدته إلى فراشه، أراد الحديث لكن كلماته خرجت معوجة بسبب الشلل
الذي أصاب جانبه الأيمن:

لماذا تبكين يا حبيبتي؟
بيلا: أبكي فرحاً يا والدي، فدرجات الفصل الأول التي حصلت عليها جيدة جداً.. أبكي
فرحاً وبهجة

رسم نصف ابتسامة بجانب شفته اليسرى رغم أنني رأيت في عينيه التكذيب وقال:

أحسنَتِ يا صغيرتي.. أحسنَتِ

والدك فخور بك.

مسحت دمعي وابتسمت له عنوة وأردفت:

هل أنت جائع؟، سأحضر لك الطعام، هل عاد عماد؟
الأب: لا أدري.

خرجت من غرفته ومخالب الألم تمزق قلبي، أصعب ما قد أمر به رؤية والدي يتحامل على نفسه ويجر قدمه للاطمئنان علي.

تعرفين يا عائشة لا أود الخروج من بيئتي هذه لوحدي فقط، أريد أن أنتشل أهلي معي، والدي المقعد وأخي المكافح، ليس من العدالة أن يعيش معظمنا في حجور ويعيش البعض الآخر في القصور.

عائشة: ستصلين إلى مبتغاك يا بيلا.. أتمنى أن تصلي.

وهي تربت على ساقى بيدها واضحة العروق.

في نفس الأسبوع كانت قد ساعدتني عائشة على شراء فستان من ماركة تركية، مناسب السعر لكنه سيكلفني نصف راتبي لسته أشهر قادمة ولكن لا بأس، أحمل كيس التبضع الحاوي على الفستان مغتبطة كأنني أحمل مستقبلي بين يدي، فر إلى مسمعي صوت عائشة لينتشلني من أحلامي عائداً بي إلى أرض الواقع:

أنا أحادثك هل تسمعيني؟!

بيلا: ماذا قلت؟

عائشة: أقول بأنني سأعيرك حذائي الأسود ذا الكعب العالي وقرطاً جميلاً يتناسب مع فستانك هذا.

بيلا: أنا أشكرك على صنيعك هذا، أشكرك على كل مرة أجذك بجواري فيها كلما احتجت لشيء، لو كانت لي أخت لما فعلت معي كل ذلك.

ابتسمت عائشة ابتسامتها المطمئنة ذاتها إلي تبسمها لي وأنا أحدثها عن أسوء ظروف، تلك الابتسامة الباردة التي تنزل على نيران قلبي لتكبح ذلك الجموح في ثوان.

ذات ليلة (4)

هل سمعتم عن قمر ينام ويترك الدنيا في عتمة!، هذا ما تفعله
حبيبتي.. تفرش بتل الورد وتتغطي بأوراقها، حبيبتي التي تصرع غيرتي الشرقية وتعانق
النوم بلهفة، نسيت نفسها نائمة حتى مرت ساعاتي دهوراً سوداء قاتمة،

جميلتي التي لم يوقظها صوت العصفور على شرفتها ولم تشعر بشروق الشمس من
خدها البارزة، أمسح على خيوط شعرها الذهبي فتتحرك لينتفض قلبي، نقاؤها يلوح
لي صامتاً فألتهم نواحيها بعيني وأغزو فيها كل ناحية، يا حسرتي على نفسي أصار
سريرها أقرب مني ليحتضن عرقها بكل تلك البراءة، نائمة صامتة تكسر بصمتها
الحروف وتأسر الكلمات الخارجة،
فتحت عينيها ليسيبني لون البحر المخطوف من عينيها، تنظر إلي وتسقط على
وجهها ابتسامة دافئة،
تمسك يدي بين يديها وتشد القبضة ثم أوشم على خدها قبلة لتغلق عينيها وترخي
القبضة وتستسلم لقيود النوم من ثانية.

هيا كُفي عن النوم يا كل النساء
وأيقظي كل العشاق.. أينما كانوا وكيفما كانوا
أيقظي أبجدية الحب بسرقة ما هو لك بالفعل
تلصصي علي من شفاهي واسرقي منها قبلة، وافتحي في صميم قلبي ثغرة
كوني الحاضر وكوني ذلك الزمن القادم واشطبي بيديك كل امرأة في حضارتي الغابرة.

فتحت حبيبي عينيها لأرى البحر والشجر
أرى النور والسحر
أرى الطفلة المشاغبة والمرأة الناضجة
هي أشياء كثيرة وأكثر.

رسمت على ثغرها ابتسامة وراحت تفرك عينيها بشدة:

صباح الخير، حبيبي ماذا تفعل هنا؟!
صباح الخير يا حلوتي، ما كل هذا النوم؟!
اتصلت بك مراراً فلم تجيبي، فما كان علي إلا المجيء للاطمئنان عليك.
: ولكن لا يفترض بك الوجود هنا، لا أظنه مشهداً ملائماً أن يراك والدي
تجالسني على سرير في غرفة نومي.
: ما الذي تقولينه كارمن!!، نحن على وشك الخطبة، كما أن والدك قد غادر
المنزل منذ الصباح.. هذا ما قالت والدتك.
كارمن: حبيبي ميشيل أنا لا أقصد شيئاً، هلم إلي.

وأخذتني بين ذراعيها وتركت آثار شففتيها على رقبتني وأردفت:

سهرت البارحة لعلي أدرس قليلاً فالاختبارات قريبة وأظن أنني مضطرة لمساعدتك
في حل بعض المسائل كالعادة، لذلك كان يجب علي أن أفهم أولاً.

قهقهت من دعابتها ولثمتها على خدها فأبعدتني قائلة:

تأخرنا على المحاضرة الأولى فعلاً لكننا نستطيع شرب القهوة في أي مقهى قريب ثم اللحاق بالمحاضرة الثانية.

لكنني شددت يديها إلي وعزمت أن أترك أثري في ذلك الجسد الغض الذي سيكون لي لاحقاً، نهبت ذاك الطريق المرصوص بالبلور الأبيض من أعلى رقبتها ورحت أعدو جيئةً وذهاباً وأنثر قبلاتي بسخاء في كل ركن فيه.

خلال ساعة كنا متوجهين إلى سيارتي نوع KIA المركونة قريباً من المنزل، لم تتأخر حبيبتي كالعادة فهي جميلة ولا تستخدم الكثير من مستحضرات التجميل وهذا ما يزيدني حباً لها، ضغطت على دواسة البنزين وانطلقنا مسرعين نحو الجامعة، الساعة الآن ال عاشر ال ا فينة.. وهذا يعني أن أمامنا ما يكفي من الوقت قبل موعد المحاضرة الثانية.

هناك في شارع الحمرا وفي إحدى المقاهي التي اعتدنا الذهاب إليها، وفي نفس الزاوية التي تعودنا على الجلوس فيها أعدنا الكرة للمرة الألف تقريباً، بنفس الطلبات الروتينية قهوتي السادة وقهوتها المحلاة مع إضافة قطعة زبدة، أرتشف القهوة سارحاً عبر زجاج الواجهة أنقل نظري على طول الشارع الذي يمتد أمامي مع الأشجار الباسقة على الرصيف يغطي جانبي الطريق، جفلت حين وضعت يدها الدافئة علي وارتيج فنجان القهوة، التفت إليها:

هل أنت على ما يرام؟

ميشيل: أنا بخير

كارمن: لم أنت شارد الفكر هكذا؟

ميشيل: لقد حلمت حلماً غريباً ليلة أمس، حلماً لم أفهم منه شيئاً، كنا على متن مركب ما تائهين في عرض البحر لا ننتبين لنا وجهة من شدة الظلام، وكنت ترتعدين خوفاً بين أحضانني، جفلت من نومي يابس الحلق.. أتصعب عرقاً، وما زادني خوفا حينما تأخرت صباحاً، هل رأيت عدد المكالمات وكم الرسائل التي وجهتها إليك منذ الصباح.

كارمن: لم أفتح هاتفي بعد.

ميشيل: غزاني الموت لحظتها وراح يأسر مني في كل لحظة جزءاً جديداً، قدت سيارتي في تهور حتى وصلت إليك ورأيتك نائمة كملاك مرهق بعد جولة نشر الفرح، أنا أحبك جداً كارمن.

غمرتني كارمن في أحضانها وأردفت:

هون عليك يا حبيبي أنا بخير، لن يحصل شيء تكرهه بإذن الله.
والتقت عيني بعينها حتى اضطرم في قلبي شرر النار، أخبرني عينيك بالتوقف عن
إضرار الحرائق بجسدي فلقد تفحمت أنا ملي لحد الفجيرة وأنا الذي لي بين يديك
طواف وسعي.

أبعدت نظري في الحال وقد تحولت إلى كتلة حمراء إثر تدفق الدم إلى كل شعيرة في
جسدي، كما أننا في مكان عام ولا يسرني أن يحدث المزيد، شددت يدها متلعثماً:

هيا بنا، لا يجب تفويت المحاضرة الثانية أيضاً.. كما علينا التبضع لحفلة جمان.

ذات ليلة (5)

في مكان ما في ضواحي لبنان القريبة من العاصمة تنتصب فيلا وصفي بيه المعلولي.. أبي، تتوسط مساحات خضراء شاسعة وأصناف الأشجار الباسقة، تلتصق تحت نور أحد صباحات بيروت بواجهاتها الزجاجية وتليها قلعة عائلة المعلولي القديمة التي لا تزال منتصبة عبر قرن من الزمان.. هذه العائلة الإستقرائية العظيمة بدأ وهجها يخبو بعد أن رُفعت قضايا فساد ضد أبي لم يتم إثباتها لكنها أفقدت أبي منصبه في البرلمان اللبناني في دورته التالية ضد غريمه وتم الحجر على الكثير من الأموال والممتلكات الثمينة للعائلة، ولم يتوقف الحظ العاثر في تخبطه بنا إلى هذا الحد لكن سلسلة الأحداث المأساوية ظلت مستمرة والتي منها ما مررنا بها منذ عدة سنوات من حريق المخازن الذي طال المواد الخام والمنتوج وبعض أجزاء المعامل والأجهزة، خسرتنا الكثير من رأس المال ومواردنا المالية باتت محدودة، نحتاج إلى يد ذهبية تنتشلنا مما نحن فيه وتعيد الأمجاد إلى عائلة المعلولي.

هذا ما خطر لوالدي حينما التقى صديقه القديم صاحب الملايين السيد حمود البقشاني الذي زار لبنان منذ عامين في رحلة مصطحباً معه ابنته الفاتنة جمانة وسُر أكثر حينما علم أنها تنوي أن تكون بين بعثة الطلاب المنضمين إلى الجامعة الأمريكية في لبنان، رسم والدي خطته بتفاصيلها المحكمة، سجلني في تلك الجامعة في مقعد خاص وفي نفس القسم الذي اختارته جمانة.. قسم العمارة، لتبدأ رحلة مطاردتي للفريسة تحت قيادة والدي وتوصياته الدقيقة، لم أتجشم الضغط كثيراً لأنني كنت قد أعجبت بها بالفعل، بشرتها الخمرية وشعرها الطويل المعتم، أما عيناها البنيتان كأنهما شمسان تضيئان في وجهها بأشعثهما السوداء الكثيفة، كم من المشاعر يغزو قلبي، رغم أنه لا يصل حد الحب لكنه كثير من الإعجاب والجنون بهذا القدر من الأناقة والرقي.

دق جرس المنبه وشمس الظهيرة ينعكس على النافذة ويغزو الشرفة نافذاً إلى عمق الغرفة، انتصبت جالساً من أول منبه مع أنني نصبت ما يقارب الخمسة بسبب ثقل نومي لكن أهمية اليوم والحدث جعلني أكثر نشاطاً، تركت سريري متوجهاً إلى الحمام.. وقفت تحت الماء المنهمر وأنا أكرر ما سأقوله لجمانة اليوم، أختار الحركة المناسبة والتعبير الملائم، أعدت ذلك قرابة المائة مرة فلا بد للنجاح أن يكون حليفي اليوم ولا مجال للخسارة، كل شيء مرهون بهذا الحدث، قررت ترك الحمام حينما أحسست بأني أتقنت الدور وحفظت التعابير عن ظهر قلب.

دَحَلت الخادمة الغرفة بدون قرع الباب مما أثار حفيظتي وهممت بالصراخ لكنني تماكنت نفسي حين تذكرت أن صخبي دائماً ما يصيبني بالصمم عن قرعاتها المتكلفة الهادئة.. دعيتي لتناول الغداء لكنني أبيت شاكراً فلدي ما هو أهم لأتجهز له.

كنت قد اخترت طقمي الأسود الذي يطابق جسدي بارز العضلات وربطة العنق التي تشبه جناحي فراشة، حذائي المصنوع من الجلد من ماركة (Kenneth Cole) الأمريكية ذات التصاميم المميزة لأبدو جذاباً أو مثيراً أقل ما يمكنني تقديره.

حينما قاربت الساعة الخامسة عصراً تجهزت ورششت قنينة العطر الذي اخترته بعناية ليناسب هذا الحدث الجلل، وقفت أمام والدي ليلقني نصائح الأخريرة وركبت سيارتي الكاديلاك وسابقت الريح باتجاه مستقبل عائلة المعلولي المجهول.. مكان الحفل قد تم اختياره بذوق فحفلة ساحلية في فندق لانكستر بلازا بيروت الساحلي الشهير (Lancaster Plaza Beirut) تنم عن ذوق رفيع لزوجتي المستقبلية، وصلت قبل الموعد بنصف ساعة لكن المفاجأة كانت أنها غيرت موقع الحفل من الصالة إلى الشاطئ، وقفت مشدوهاً من قول موظف الاستقبال، فسألته في استغراب:

متى تم تغيير المكان؟

الموظف: قبل يومين سيدي، اتصلت بنا آنسة جمانة في وقت متأخر وطلبت تغيير مكان الحفل من الصالة الداخلية إلى الشاطئ الخاص بالفندق.. وتم لها ذلك على الفور.

فادي: لكنها لم تبلغنا؟؟ حتى أننا لا نرتدي ما يناسب حفلة شاطئية؟!
الموظف: هي لم تخبر أحداً.. تفاجأ الجميع مثلك تماماً.
سيدي يمكنك ترك حذائك وما تريد في أمانات الفندق.

فادي: هذا جيد.

دخلت إلى أحد الغرف المجهزة لضيوف هذه الحفلة؛ خلعت عني سترتي وربطة العنق وتركت ساعتني والحذاء.. وقفت أمام المرأة مستاءً، لم عليها فعل ذلك!!
العائلات النبيلة لا تتصرف هكذا أبداً، فتحت أزرار قميصي لأكشف عن رقبتي وجزء من صدري لأبعد عن مذهري صفة الرسمية أكثر. ناديت الموظف وأومأت له ليحملهم بعيداً ثم تركت الغرفة ليرافقني موظف آخر إلى مكان الحفل.. كان الجو صاخباً والحضور منتشراً في أرجاء المكان، حادثت من أعرفهم ووزعت بعض الابتسامات المجانية يميناً وشمالاً، جلت بناظري أرجاء المكان لأجد غالبية الحضور قد حاولوا تغيير منظرهم الرسمي وبالكاد تحول منظرهم لحفلة شاطئي.. ظهرت على سحنتي ابتسامة ساخرة وزارني شعور بليد بأنني كتلك المناضد في حياة تلك الفتاة لكن الفرق الوحيد هو أن للمناضد فائدة قد تحمل الأقداح وقد يجتمع حولها الناس لتناول عشائهم أما أنا فلا محل لي من الإعراب عندها.. وضعت يدي في جيبي ووقفت أترقب الدخلة الأسطورية التي تحدثت عنها جمانة.

مر بعض الوقت واكتمل الحضور ولكن جمانة لم تظهر بعد، تناهى إلى سمعي صوت يشبه صفير موقد كيروسيبي قديم لم ينتبه لها أحد بفعل صخب الموسيقى لكن شيئاً ما داخلي قد أنبأني بأن هذا الصوت له علاقة بالموضوع، صار الصوت يعلو ويقترب حتى ظهر جسم غريب في السماء يقترب، اقترب الشيء أكثر فأكثر حتى توضحت الصورة، كان منطاداً يبدو صغيراً من البعد الذي هو عليه.. اقترب أكثر وزاد الصوت حتى انتبه إليه الجميع، توقفت الموسيقى وشُحن الجو بالترقب الشديد، كانت حاوية المنطاد مغلقة على شكل صندوق هدية محكم الإغلاق، جلت بناظري أرجاء المنطاد لعلي أجد خيطاً يدل على أن هذا المنطاد يحمل جمانة لكنني لم أجد، حل المنطاد قريباً منا وتوقف في مكان مرتفع نسبياً قرب الشاطئ، ترقب يغذي الجو والعيون تحمق في هذا الصندوق المغلق الذي حط على الأرض، سقطت جوانب الحاوية كلها في آن واحد ارتفعت منه مئات البالونات الملونة في الجو.. انطلقت الألعاب النارية في نفس اللحظة التي ظهرت فيها جمانة من بين تلك البالونات الطائرة عزفت الموسيقى واهتز المكان بالتصفيق والصفير.. ارتسمت على شفاهي ابتسامة رضا ووقفت أتابع المشهد عن كثب، لكنني لاحظت أنها لا ترتدي الفستان الذي اخترناه معاً في ذلك اليوم من الأسبوع الماضي لكنها ترتدي فستاناً زهرياً فضفاضاً تظهر منه قدمها اليمنى حد الركبة عند المشي، وخلخال يلمع تحت أشعة الغروب وشعر أسود منسدل يطوق كتفيها، مشهد لن تراه عينك إلا في أفلام ديزني ولن تسمع عنه إلا في الأساطير.

وَقَفْتُ هناك بين أصدقائها.. أناس يرقصون وآخرون يصفقون، أما البقية فوقفوا في مجموعات يتسامرون، بدأت الاقتراب واضعاً يدي في جيبي جازاً خلفي أظن الفضول الذي اعتراني حينما رأيت هذا الكم من التغيير، رسمت على وجهي علامات الاستفهام وبادرت:

ألا يفترض أن تخبرينا بأنك قمت بتغيير مكان الحفل؟
هل يعقل بأن نتواجد بمظهر لا يناسب المكان!!
جمانة: لم أتعهد ذلك لكن فكرة المنطاد خطرت لي في اللحظات الأخيرة، ألم تعجبك الفكرة؟!؛

وقد رمقتني بنظرة لامبالاة وهي تقول ذلك، أطرقت برأسي وغمرني شعور غريب كثيراً ما يزورني، أشعر بأن هذه الفتاة لا تميل لي، لكنها تسايرني بسبب ظرف خارجي بعيد عن إرادتها، هذا الشعور لا ينفك، لا يتركني، إنه يزاحم أفكارني، ولكنها لا يجب أن تثنيني عما أصبو إليه، فهذه الفتاة تحمل المصباح الذي سينير مستقبل عائلتي، رفعت رأسي وقد رسمت ابتسامة مشرقة قائلاً:

كل أفكارك خلاقه وجميلة **كجمال**، أنت مميزة يا جمان.
ابتسمت بحسرة لكنها لم تكن كذلك بالمره وعادت لانشغالها مع الفتيات، تراجعت
ورحلت.. وقفت هناك وحيداً رغم أن ميشيل والشباب قد لوحوا لي للانضمام لهم
لكنني لم أستطع، لا أتخيل حياتي مع فتاة لا تهواني لكنني مضطر.

مالت شمس المغيب واحمرّ الأفق، رأيت خيال فتاة يقترب من بعيد، أنيقة وذات
جسد جذاب، تعزف بخطواتها الناعمة على رمال الشاطئ.. تقدمت أكثر حتى
توضحت الصورة. إنها بيلا ترتدي فستاناً أسوداً يلتف حول جسدها الممشوق بشكل
ساحر ويظهر مفاتها عبر تلك الياقة الواسعة، يظهر عليها الضجر بسبب اتساخ
حشية فستانها بالرمال، تخطو خطوات صغيرة بسبب ضيق الفستان تتعثر فترفع
طرفه في دلال، رفعت عينيها لتقع عيناها علي، نظرة ملكت علي حواسي، حاولت
جاهداً إخفاء نظرة الانبهار عن وجهي، لا أريد أن أمنيها أكثر، فأنا هاجرها عاجلاً أم
أجلاً، فأنا زوج تلك التي تتعمد تجاهلي، هذا ما يكون عليه النصيب.. لا أحد يأخذ
ما يريد.

تجولت بناظري في المكان ، ميشيل وكارمن يتنحيان عن الجمع وتتجلى عليهم
الرومانسية وتطوف بهم، أما هناك رغيد التعيس بملامح واجمة يقف وحيداً تلاحق
عيناها بعض الفتيات المارات، يتوجه إليه بيار حاملاً كأسين يمد يده بأحدهما إليه،
جمان تطير كأنها فراشة من جمع إلى آخر، فتيات راقصات يتمايلن على أنغام
الموسيقى ويجرعن كؤوس الخمر والعصائر المثلجة ذات النكهات المختلفة.

جاء موعد الاحتفال وقطع الكعكة، بدأ الجمع بالصراخ والغناء عند رؤية الكعكة
الضخمة المشكلة على هيئة حورية، تحمل رأس جمانة، مزينة بالأصداف، صوت
وليد توفيق وهو ينادي (انزل يا جميل عالساحة....) يصدح من مكان قريب، تقدمت
جمانة وهي تسل سيفاً ضخماً سلموه لها لتوهم، قطعت الكعكة على ارتفاعها
وتعالت الصيحات والزغاريد، تركت السيف جانباً ووقفت تستقبل القبل والتهاني،
انتهى دور المهنئين، أشعر بأنه جاء دوري، بدأ الدم يفور في رأسي من فرط التوتر
وقلبي يقرع قرع الطبول، تقدمتُ منها في توجس ويدي تنسل في جيبي مخرجاً علبة
صغيرة، جثوت أمامها على ركبتي، ورفعت لها العلبة فاتحاً غطاءها ليظهر الخاتم
الثمين وتنحنت قائلاً

لطالما تمنيت أن أكون لصاً أسرق منك القلب والوداد
أحظى بك وحدي
وتغرقين في بحري اللجاج
أرتوي من نهر حنانك

وتنيرين لي الليلَ الداجي
أحاط بدفء مشاعرك
وتكونين لي يا مُنى الفؤاد

رفعت أحد حاجبيها في غرور وسحبت جانب شفرتها الممثلة في ابتسامة استحغار
وقبل أن تمد لي يدها سمعنا أصواتَ مفرقات.. ألعاباً نارية بألوان مبهجة تعلو من
سطح يخت يقترب من ميناء اليخوت القريب، ضيقت عينيّ في تركيز محاولاً التقاط
رؤية مناسبة في تلك الأضواء الأرجوانية لغروب هذا اليوم، ما التقطه عيني كان كفيلاً
لمعرفة ما يجري.. كان اليخت يحمل اسم "Juman".

ذات ليلة (6)

شعاع ضليل من الأفق الأرجواني يتسرب منعكساً على هيكل يختٍ
يقترّب، وما إن أصبح على بعد مناسب بدأت بإطلاق مفرقات نارية.. تنفجر لتتوهج
في السماء وينعكس ضوءها على صفحات الماء وشفيفح اليخت ذي اللون الزهري ،

انتبه الجميع وبدت المفاجأة على محياهم ومن بينهم جمانة، انفجرت شعلة إضافية لتتير اسم اليخت الذي رسا على ميناء اليخوت، اسم Juman المكتوب بطريقة زخرفية بديعة.

توجه إليها أحد العاملين حاملاً مظروفاً بين يديه، أخذته جمانة وفتحته في فرح تخالطه اللهفة، رفعت عينيها ناظرة إلى وجوهنا لبرهة.. تنهدت ثم بدأت القراءة، ولا زال فادي يجثو على ركبته تحت قدميها تقيدته الصدمة؛ بدأت تشرق على وجهه جمان الممتلئ ابتسامة كأنها الشمس حين طلوعها والتمعت في عينيها دمعة ببريق غريب حبسته ثم رفعت رأسها ضامة الورقة إلى صدرها قائلة:

إنه هدية عيد مولدي.

لم تصرح عن صاحب الهدية ولم تقل أكثر، كان المكان يرتج في تصفيق وهتاف. قاربت ساعة انتصاف الليل وشارف الحفل على الانتهاء، بدأ المدعوون بالانسحاب حتى بقي منهم عدد قليل يقارب العشرين.. أغلبهم الأقربون لقلبها صلة ومحبة، فخطر لها خاطر أن تأخذنا في جولة بيختها في عرض البحر، جالت بناظرها بحثاً عن عامل واقف ينتظر الأوامر لكنها لم تجد فأشارت إلى بيار بيدها فاقترب لتهمس له ببعض الكلمات فانطلق يعدو لينفذ ما أملي عليه لتوه، رفعت عقيرتها قائلة: سنقضي ليلتنا هذه على متن اليخت (جمان) في عرض البحر المتوسط وأتمنى أن تكون ليلة تحفر في ذاكرتكم للأبد.

تبادل الأصدقاء نظرة الفرح والحماسة وتوجه كل منهم ليجد لنفسه ما يمكن أن يحميه من برد البحر لهذه الليلة، مرت قرابة النصف ساعة حتى تجمهر الجميع وتوجهوا إلى اليخت.

على متن ذلك اليخت المكون من طابقين استأنف الجمع احتفاله من جديد، موسيقى هادئة تعزف تحت سماء يطل منه القمر برأسه بين أكوام الغيوم ثم يعود ليواري جمال خديه خجلاً خلف تلك الغيمة أو أختها، بحر بهيم يمتد على مد بصرك وسواد يلفك من كل جانب، يجاهد ضوء اليخت الساطع بعثرة هذه العتمة.. يكافح فتخور قواه دونما أي حصيلة غير بضع أمتار لا تذكر، وقفت إلى حافة اليخت أنظر إلى أمواج الماء المتلاطمة على صفحات اليخت المنطلق وببيدي أمسك كأس نبذ لأول مرة.. هواء الليل البارد يرتطم بوجهي ويمر راحلاً رحيل الغريب دون وداع.. جو راق لي، ربما لأنني أعيشه لأول مرة وربما لعلمي بأنني لن أعيشه مرة أخرى.

مرت قرابة الساعة ونحن نشق في عمق البحر دونما وجهة، الجو يبرد أكثر فأكثر حتى أحسست أن عمودي الفقري قد تحول إلى قالب من الثلج، آثرت النزول للانضمام

إلى الأصدقاء، ولجت إلى صالة كبيرة نوعاً ما بالنسبة إلى غرفة على متن يخت، جلست في إحدى الزوايا فلحقتني بيار وانهاled عليّ بسيل كلامه المعتاد:

أين كنت يا هذا في هذا الصقيع؟ أقسم بأنني لم أستطع الخروج للبحث عنك، كنت سأموت برداً بالتأكد.. أجل بالتأكيد.
وقبل أن أنبس بكلمة ساد السكون بين الجميع حتى أنك لو أوقعت إبرة لسمعت صوت ارتطامها بالأرضية، لكن الصوت الوحيد الذي كان واضحاً هو صوت ارتطام حبات المطر بالنافذة.

برق وميض ساطع أحال ظلمة الليل إلى نهار وأرعد صوت شديد كأنه صراخ السماء، أخفض البعض رأسه واحتتمى الآخر بيديه؛ صوت ربان السفينة يعلن عبر مكبر الصوت الموجود في الصالة عن:

حالة طارئة

يظهر على خارطة الملاحة إعصارٌ متوجه نحونا.. الإيقاف الاضطراري قيد التشغيل، على الجميع ارتداء ستر النجاة والتوجه إلى الزوايا بعيداً عن النوافذ.

توتر الجميع وشحن الجو بالفوضى.. بدأت فتيات بالبكاء والرجال بالاضطراب، جلست كل مجموعة في إحدى الزوايا والتحفوا بالبطنيات، السماء تزار غاضبة بضوء شديد والأمواج تتلاطم قاذفة اليخت يميناً ويساراً، نظرة وجوم تعلو وجه فادي منذ لحظة تقديم الخاتم الذي تكلم بالفشل الذريع ونفس شرر الترقب في عيني بيلا لا يفارق وجه فادي منتظرة حدوث شيء لن يحدث أبداً، أجلس قريبا شاعراً بتزايد وجيب قلبها كلما علا صوت الرعد، وسالت عن وجهها الذي غاضت عنها الدماء قطرات من العرق البارد أخذت تزداد كلما مسحته بكم سترتها، وضعت يدي على كتفها لطمأنتها فجفلت وحدثت بي بعينين ملؤهما الخوف بحثت في جزء منسي من أعماقي لأخرج لها ابتسامة، فدفنت نفسها في صدري هاربة من هول ذلك الواقع.

ازدادت حركة اليخت وعلا صوت تلاطم الأمواج على صفيحها، يميل المركب بشدة حتى بدأت قطع الأثاث تتحرك عن مواضعها وقطع الأكسسوارات المعلقة المزينة للغرفة ترتج بقوة، صراخ الفتيات يصم الأذان مكوناً سمفونية مع صوت صفائح الماء المندلقة من السماء بشدة، آيات تتلى تسري كهمهمات من أفواه بعض الحاضرين، الموقف مهيب، حتى أحسست بصدق أمنية جمانة حين تمت أن نعيش ليلة تخلصنا للأبد.

مر بعض الوقت قبل أن تهدأ حركة اليخت وتُحالَ إلى تمايلٍ طفيف، انقطع صراخ السماء لكن المطر لا يزال منهمراً خارجاً، الخوف لا يزال مسيطراً على الجمع الملتحم ببعضه، أضواء الشموع القليلة الخافتة تنعكس على المعادن والقطع اللامعة، خاتم في يد فادي يبرق بشدة، مميز الشكل ذو حجر غريب تسري لمعة على طوله، انبهرت به عيني وتذكرت ما كنت قرأته يوماً عن ذلك الخاتم الملعون، ضمنت بيلا إلى صدري أكثر وطرحت ما جال بخاطري من فكرة:

ما رأيكم أن أحكي لكم حكاية قرأتها في يومٍ مضى منذ سنين، لا أذكر اسم الكاتب لكنني أذكر جيداً أنه ذكر في مقدمتها عبارة (يقال بأنها حقيقة)، انتبه إليّ الجميع وارتسمت على وجوههم نظرة الترقب التي أزاحت نظرة الخوف لتحل محلها، فأطلقت لساني ورويت ما رويت.

الخاتم الملعون

هنا بدأت حكايتها، في مثل هذا الوقت، والشمس مائلة إلى الغروب وقد اصطبغت بلون الدم، والليل يسري حاملاً رداءه الأسود، ليغطي به الأكوان، يا لها من أمسية صاخبة، تسللنا عبر الباب الخلفي، كما نفعل دائماً، مشينا على رؤوس أصابعنا عبر الزقاق المظلم ذاك، أصوات القطط التي تتشابك على بقايا

طعام الأمسية، نسرع الخطى وكيف لنا أن نفوت جمعة الأصحاب تلك ونسكر على بقايا شراب الأهل وضحكات ترن على أئفه الأسباب، هكذا قضينا معظم ليالينا.

كانت كأي أمسية مثلها مثل الأمس وقبله لكنها لم تكن كذلك أبداً، فهمومي كانت بثقل الجبال وأتعبتني أهوال ما أمر به حينما لمع ذلك الشيء بذلك البريق الأخاذ ولففت انتباه إحدى صديقتي أيليف. إنها أنا بل أكثر من ذلك توأم روحي، أختي وأكثر، اعتصر قلبي شهقتها وإعجابها به، كأنها أسرتها، وسلبتها الروح، مدت يدها إليه لكنني منعتها لكن إصرارها كان أقوى مني، فذلك الشيء يختار صاحبه بعناية رغم أنفه ورغم أنفي.

هنا بدأ عذاب صديقتي وعذاب ضميري.

صداقة الطفولة التي تمتد جذورها ثابتة في أعماق الروح، تتشابك أغصانها لتنسج حياتنا وتعطي ظلالاً وارفة نقضي فيها أسعد اللحظات، أنا ميرفت وصديقتي أيليف نتشارك نفس سنة الميلاد مع فروق بسيطة في الأشهر، إضافة إلى مشاركتنا الحياة والدراسة في كلية الحقوق، لا أذكر يوماً أنني درست وحدي أو أكلت، فلقد كنت صغيرة أحمل إنائي المليء بالحساء الساخن وأنقله بحذر متوجهة إلى منزل أيليف الذي يقع في نفس الحي، الحرارة تلسع يدي الصغيرتين وينسكب معظم الحساء بسبب خطواتي المتعثرة ولكن لا يهم، المهم أن تشاركني أيليف غدائي.

بداية أسبوع رتيب، الشمس تختفي على استحياء تحت العباءة القطنية البيضاء، تظهر للحظات وتختفي لدهور، نسيم عليل يمر ليداعب كل شيء في طريقه، انتظرت أيليف تحت المنزل لنصف ساعة حتى ظهرت والدتها معذرة عن مرافقتها لي اليوم، يبدو أن أيليف مريضة، قلقته عليها ونسيت دوامي ومحاضراتي دخلت منزلها الذي أعرف جيداً كيف يفتح من الخارج، حييت والدتها بنفس حرارة كل يوم كأنني لم أرها منذ شهور سألتها عن أيليف لتشير إلى غرفتها مبدية علامات القلق، صعدت السلالم متوجهة إلى أيليف التي أظن أنها لم تغادر فراشها بعد:

صباح الخير أيتها الكسولة

أيليف: صباح الخير ميرو

ميرفت: ما بك؟! هيا فلتنهضي، لدينا الكثير لعمله اليوم

أيليف: اخفضي صوتك أرجوك، فالصداع ينهش رأسي

ميرفت: ما بك أيليا!؟

أيليف: لا أعرف، لكنني متعبة جداً، عظامي تأن كأنني جبت العالم في ذلك الحلم
ميرفت: أي حلم؟!
أيليا: حلمت بشيء غريب، كأن هناك ملكين حملاني عن يميني وشمالي وجابا بي قمم
ثلاثة جبال لم أر في غرابتها قط، والأغرب من ذلك أنني كنت أرتدي البياض، كنت
عروساً بالمعنى الأصح.
ميرفت: لا.. لا.. تخافي، إنها.....
أيليف: ماذا!!

ورحلتُ مسرعة وأنا أتعثر في لا شيء وأكلم نفسي كأنني جننت وانطلقت أعدو على
غير هدى
" لقد حل بها ما كنت أخشاه، أنا آسفة أيليف.. آسفة جداً "

أيليف: هياي.. أيتها الفتاة.. إلى أين؟
ميرو!! ما بك؟!
على الأقل اطفئي تلك الأضواء.. أريد العودة إلى النوم

بكيت يومها بحرقة، كانت دموعي كحرارة بركان يوشك أن ينفجر، ينساب على خدي
ليحرق سكونها وابتسامتها ويحرق معها قلبي، كيف فعلت ذلك، كيف سولت لي
نفسي أن أهبها ما كان لي، لحظتها جف دمعي وعاد بي شريط ذكرياتي إلى تلك الليلة،
تلك الليلة التي قلبت كل شيء، وجعلت لعنتي لعنتها.

(1)

ضحكات يملأ صداها الكون، نظرات لهفة بي العاشقين (أيليف
وحبيبها مراد)، كلمات عشق وهيام تتطاير ليقذف كل منهما قلب الآخر ويقذف في
قلبي النار، أنا لم أشعر بغيرة قط مثلما شعرت به في تلك اللحظة، كنت دوماً أتمنى
لهما الارتباط القريب، كنتُ أحضر حفل زفافهما مراراً وتكراراً في أحلامي، لكن ما
شعرت به في تلك اللحظة كان مختلفاً، ما كنت أمر به كان يثقل كاهلي، أكثر مما كان
محتملاً، لا يمكن أن يكون نصيبي أقل من نصيبها وأكون أقل حظاً منها أو ربما أوفر..
شيء غريب لا يمكنك تكهنه.

نطقت بتلك الكلمات دون أن أشعر، فلمع الخاتم في يدي لتلفت نظر أيليف الجالسة
بقربي دون سواها، فأنا كنت أقصدها، شهقت أيليف انبهاراً، مسكت بيدي تتفحص
الخاتم بشغف وقد حُبست أنفاسها من فرط الحماسة:

ما هذا الخاتم يا ميرو؟! كم هو جميل!!

تأتأت واعتصر قلبي قبل أن أجيبها:

هل هو جميل بالفعل؟!
أيليف: جميل جداً، لم أر في حياتي خاتماً بجماله قط
هل لي بتجربته؟!

سحبتُ يدي من بين أناملها المتفحصة وقلت:

لا.. دعكِ من ذلك
أيليف: أرجوكِ ميرو أرجوكِ، فقط لثوان معدودة

نزعت الخاتم من يدي بكل سهولة رغم أنني حاولت قبل ذلك عشرات المرات ولم أفلح في إزاحته، مددت يدي المرتجفة وناولتها لأيليف وقد جمدت في طرف عيني دمةً أبت أن تسيل وتفضحني.

لبست أيليف الخاتم في يدها اليمنى ليشع نوراً جمد الدم في عروقنا أنا وهي، أشرق وجه أيليف وبدأ يبعث نوراً كأنها البدر في تمامه، وكانت لحظتها أجمل مرة رأيت فيها عيناى أيليف، صارت تتفحصه باهتمام وتنظر إليه من كل جانب، تمد يدها مرة وتقرّبها مرة، ثم حاولت خلعه لكنه بدا وكأنه جزء من جسمها لا يمكن أن ينفصل، حاولت وحاولت ولكن هيهات للجبل أن يتزحزح، توترت أيليف:

لا أستطيع خلعه يا ميرو!!
ميرفت: لم ذلك!!
أيليف: لا أعلم، لكنه لا يتزحزح
ميرفت: دعيه في إصبعك، هو لك
أيليف: كيبببب!!، أشعر بأنه يعني لك الكثير
ميرفت: لا تهتمي فأنتِ أعز من أي خاتم
أيليف: لا أشعر به يعتصر إصبعي وليس صغيراً على مقاسي لكن لم لا أستطيع خلعه!!
ميرفت: إنه أجمل في يدك، فأنتِ بيضاء البشرة أكثر مني
هي هديتي لكِ

ابتسمت أيليف ممتنة وغمرتني في أحضانها لأرسم شبه ابتسامة نصر على وجهي.

فعلتُ ما فعلتُ ثم اختفيت، تركتها لمعاناتها، كنت على عادتي معها في الأيام القليلة بعد إعطائها الخاتم، لكن حلمها بالجبال الثلاث (رحلتها إلى الجبال الثلاث بالمعنى الأصح) قد كان لي دليلاً على أنها تورطت، وأنا استطعت النجاة، لكن أي نجاة.. نجاة شخص جبان.

كنت أتفادي لقاءها ورؤيتها، لأنني كنت أشعر بعينيها تلوماني رغم يقيني بأنها لا تعرف شيئاً مما فعلته ومما سيحدث لها، منعت نفسي عنها، فقد كان أقصى درجات العقوبة لنفسي، إنه كالموت بالنسبة لي، فأيليف كانت بالنسبة لي هي الحياة.

ذات صباح في الأسابيع القليلة التالية، لا أذكر متى كان بالضبط، ربما صباح الأربعاء، جاءني أيليف متورمة العينين بالكاد تجذب خلفها قدميها وعلامات القلق والاستفهام تغزو وجهها الجميل، كنت لحظتها متأهبة لمغادرة المنزل في طريقي إلى الكلية دون أيليف كما هي عادتي في الأيام الأخيرة، حينما تفاجأتُ بالباب يفتح على مصراعيه دون قرعه كما نحن معتادتان، ارتمت هناك على حافة الفراش منهكة وقالت:

لم صرتِ تتركيني دون رفقة!!
ميرفت: لم أفهم؟! ماذا تقصدين؟!
أيليف: أنتِ تتفادينني ميرفت
ميرفت: ليس صحيحاً
أيليف: بلى.. هو صحيح، هل هو بسبب الخاتم!!
لقد حاولت نزعه لإعادته إليك مراراً لكنني لم أفجح
ميرفت: أنتِ تهذين.. أنتِ تحلمين.

صرخت أيليف صرخة لم أسمعها من قبل جعلت سقف بيتي يكاد يهوي فوق رؤوس كلينا:

نعم.. هذا صحيح، لقد حلمت بالفعل، لقد زارني أحدهم في أحلامي يخبرني بأنني سوف أكون زوجة ملك الجان له اسم غريب لم أستطع حفظه ويجب علي أن أجهز.

" وكيف لي أن أجهز، هل سأذهب إلى مركز التجميل أم ماذا؟!، سوف أجن يا ميرو سوف أجن، لم أستطع مواصلة نومي بعدها، خفت.. خفت كثيراً أن يعاودني الحلم، أو أن أكون عروسه بالفعل".

حاولت ترويضها، عانقتها بين يدي ودموعي الساخنة تحرق وجهي، وتنزلق لتقطر على روحي وتترك ندباً لا يمكن شفاؤها:

إنها مجرد كوابيس حبيبتي، لا تخافي أنا جنبك.. ولن أتركك أبداً.
أيليف: أرجوكِ لا تفعلي.. لا تتركيني بمفردي.

(2)

الساعة الآن الرابعة فجراً، جفلت من نومي على صوت طرقات قوية على الباب، كأن الزائر يعارك الباب ولا يطرقة، سمعت صوت والدتي وهي تمدُّ رأسها من النافذة العلوية لتتفحص وجه القادم، صوت أيليف المرتجف يجيب من الأسفل.

استغربت من مجيئها في مثل هذا الوقت " أيليف!! ماذا تفعل هنا في مثل هذه الساعة!! "

ثم أتبعته بالسؤال الذي سيجيب على أغلب علامات الاستفهام لدي

" ما اليوم!! إنه الأحد "

إذن هي حلمت بأول حلم لها، بل هي قامت بأول رحلة لها إلى ذلك البركان، وثبتت من فراشي وتعثرت بالغطاء الذي قرر احتضاني فجأة وبتُ أثب السلالم سلمتين سلمتين معاً، وصلت الباب وما إن فتحته قفزت أيليف بين ذراعي وأجهشت ببكاءٍ لا أظنه سوف يجف سريعاً، كانت تبكي بحرقه وكل عضو فيها يرتجف، رق لحالها قلبي، ما الذي فعلته بها، يا لبؤسي، وانبثقت ينابيع دمعي أيضاً تضامناً معها، ليختلط نشيحي بنشيحها.

مر بعض الوقت ونحن على تلك الحالة، أشرقت الشمس وبدأت تلون الأفق بلونٍ برتقالي باهت وبدأ نورها يتسلل عبر باب الزقاق المفتوح مع نسيم الفجر المنعش، رفعت أيليف رأسها لتتطرق لأول مرة منذ جاءت:

ميرفت لا أعلم ما الذي أمر به لكنه فظيع؛ فظيع جداً
ميرفت: ما بك أيلاء، مم تشكين؟!

بدأت أيليف تتلعثم وامتزجت كلماتها بدموعها وسال ماء من منخريها بلا هوادة:

لقد جاءني نفس الملكين، نفس الملكين اللذين حملاني إلى قمم الجبال الثلاث تلك الليلة، ولكن كانت ترافقهم أنثى هذه المرة، كانت جميلة جداً.. أجمل مما تتخيلين أعتقد أنها ليست إنسية، حملني الملكان عن يميني ويساري وأنا أمد ذراعي وأطير فوق تلك الأبنية والعمارات والهواء البارد يلفح وجهي، عبرنا الصحارى والبحار اجتزنا السهول الخضراء الشاسعة، كل ذلك لم يشكل عبئاً عليهما ولا علي ولم يدم طويلاً حين وصلنا إلى فوهة بركان عظيم يشتعل بنار يعلو عنان السماء، وظلام يميل إلى الحمرة المخيف، تتجلى ظلالاً تتحرك وتبرق هنا وهناك أم هي بفعل النيران المضطربة حقاً لا أدري، لكنهما أوقفاني على بعد عشر أقدام من تلك النيران، الغريب في الأمر أن الجو بارد هناك، وكل تلك النيران لم تُجدِ نفعا في إرسال روحها الحارة إلى المكان، كانت حلقات شعري الأحمر تتطاير في الجو وأسناني تصطك برداً، الرهبة تحف المكان والسكون يغلفها والسيدة تقف هناك وقد عقدت يديها على صدرها ويقف الملكان خلفها وكأنهما ينتظران إشارة! لكنها حينما نطقت، خرج منها صوت قديم قدم البشرية على هذه الأرض، صوت أقدام الجيش البابلي يدق الأرض متوجهاً لسحق اليهود وسبيهم، صوت أمجاد ملوك بلاد النهرين، ضحكات كليوباترا مع يوليوس قيصر وصوت صليل سيوف المسلمين التي تنسل لتجز رأس كل من حاول الوقوف ضد كلمة الله، صوت اهتز له قلبي وعاد لي شريط ذكرياتي ليصور حياتي

حينما كنت مجرد نطفة وبيضة ثم طفلاً ثم ولدت ومشيت وكبرت وترعرعت، كل ذلك يعرض أمام عيني كأنه فيلم على السينما، وحينما فتحت عيني قالت :

اسمعي أيتها الإنسانية، أنتِ هي المختارة، من بين آلاف الفتيات، ستحظين بشرف أن تصبجي زوجةً لملك الجان (أغاردا)، ضحكك مقهقهة وبدأت الدموع تنساب من عيني من فرط الضحك، كأنني سمعت أجمل نكتة قد ترن على مسامعك ثم أردفت:

ماذا ماذا، كنتُ أرتجف

لكنها صرخت صرخة انبعث منها غبار السنين، رمال الصحراء وأمواج المحيطات المتلاطمة، صرخة كفيلة بتجميد الدماء في عروقي:

نحن لا نمزح، لا وقت لنا للمزاح مع أمثالك.

تلعثمت، بدأت كلماتي تخرج ولكنها متكسرة

ل. لك.. لكني مخطوبة وأحب خطيبي.

: يجب أن تنسي خطيبك الضعيف ذاك، ستصبحين ملكة الجان، ستصبحين قوية.

ضربت الأرض بقدمي معترضة واستدرتُ محاولة الفرار

لا أريد أن أصبح قوية، أين أنا؟! ها، أعيدوني من حيث أحضرتُموني، أريد بيتي اللعين.

لم أشعر إلا وقد حُملتُ وعادوا بي إلى حيث تقف تلك السيدة اقتربت بوجهها مني وصارت قاب قوسين وأضافت:

يجب أن تسمعي لي، أريد أن أنفذ مهمتي في أسرع وقت ممكن، أود الانتهاء من ذلك، وليكن في علمك، نحن أحق بمكانتك التي ستحصلين عليها، بنات شعبي غير راضيات بقرارات ملكنا تلك، لكنه ملكنا وعلينا الطاعة، هو يعيش نساء البشر ويتزوجهن منذ قرون مضت، لديه زوجات منا وعشيقات ولكن لم تستطع إحداها بكل قوانا وقدراتنا ثنيه عن هوسه ذاك، هيا علينا الإسراع، أمامنا أربعون ليلة قمرية قبل يوم العرس.

أيليف: ماذا يعني ذاك؟!

: علينا تجهيزك لتستطعي العيش بيننا ومعاشرتنا.

وقبل أن أنبس بحرف، لم أشعر إلا وقد حملت من على الأرض حملاً وصرت أسوق إلى النار المضطربة سوقاً، صحتُ فيها:

ماذا تفعلين؟!

: عليكِ الغطس في هذا البركان أربعين ليلة قمرية ليكتمل تحولك.

صرختُ مدعورة:

ماذا!! بركان!! سوف أحترق.. لا.. لا.. لا، فلينجدني أحد.

تم توجيهي من معصميّ إلى فوهة البركان رغماً عني وأنا أصرخ وأستغيث وأقاوم.. أقاوم بشدة، يداي تتقطعان، حتى أنني هويت منهم مراراً وأعادوا حملي، أغضب ذلك تلك السيدة غضباً شديداً وصرخت بقوة ارتج لها المكان وسقطت أجزاء من الجبل وانحدرت نحو الهاوية وراح الصدى يعيد كلامها ويعيد:

دعووها

أنا ديكاا، سيدة النار، لا أحد يقف في طريق إرادتي، سأعود إليك، سأعوود وصوتها يتردد ويتردد

وجفلت من نومي وفتحت عينيّ عن آخرهما وما زال صوتها يرن في أذني، تنفست الصعداء:

يا الله، لقد كان حلماً، مجرد كابوسٍ لا غير، بدأ قلبي يصعد وينزل بشدة وقلبي يتقافز فرحاً وحينما استويت قاعدة، صُعقت من هول المنظر، آثارهم في كل مكان، معصماي قد ازرقتا بفعل المقاومة، يداي تؤلماني إثر السقوط والجروح في كل جزء من جسدي.

كنا لا نزال جالستين هناك، نسيم الصباح البارد يلتف حولنا ثم يعدو بعيداً، نرتجف ولكن ليس برداً، إنما خوفاً ورهبة من هول ما حكيت، حملتني ميرو حملاً وأغلقت الباب خلفي، استندت عليها تارة وعلى مسند السلالم تارة، توجهنا إلى غرفتها التي لا تزال مظلمة ظلاماً نقياً لم يشوبه سهام الصباح، لا تزال الستائر الثقيلة مسدولة تمنع الضوء والضوضاء، آوينا إلى الفراش معاً دون أن ننطق، وضعت رأسي على الوسادة في سكون ثقيل لكنها جذبتني إليها محتضنة وغطنا في سبات عميق.

جفلت من نومي مرتعبة مما رأيت، تحسست يدي عن ذلك الخاتم الذي أهدانيه مراد بداية ارتباطنا، لكنني لم أجده، اللعنة على هذا الظلام.. أنا لا أرى بوضوح، ألم عنف إزالته عن إصبعي هناك، مزرق ومحتقن بالدماء، رفعت الغطاء عن السرير وعن ميرو حتى متحسسة باحثة عن الخاتم لكنني لم أجدها، بحثت في حافة السرير.. فوق الكومود، لا وجود لها، لقد أزاله أغاردا في الحلم، لقد كنت جالسة بقربه بالفعل، لا وجود إلا لذلك الخاتم الملعون في يدي.

تناهتُ إلى مسمعي أصوات جلبة عالية وصراخ وقلبي يتواثب، استويت واقفة، ظلام غير نقي " أنا لا أرى الساعة من هنا "، نهضت مترنحة وتوجهت إلى قابس الضوء وقمت بتشغيله:

" لقد انتصف النهار، ما هذا العويل!! هناك من يبكي ويلطم الخدود "

شعور جعلني أمتنع وأعتصر قلبي بلا سبب، أزحت الستار وفتحت النافذة، هناك زحام في نهاية الشارع، دعكتُ عينيّ ثم أعدتُ التركيز:

" الزحام في بيت مراد!! " انتفضت وصعد قلبي إلى حلقي وبدأت الصراخ وصوتي يتحشرج باكياً:

" انهضي يا ميرو.. انهضي، مراد قد أصابه مكروه، أشعر بذلك، قلبي يؤلمني "

هرعت خارجة أنزل تلك السلالم دون حذر، ربما تعثرت مراراً، ربما سقطت، لم أكن أشعر بشيء، كانت ميرفت تلحقني وتتكلم بشيء لم ألتقط منه حرفاً، كنت مبلبلية الأفكار، لا شيء يعيش في رأسي الآن سوى مراد.

وصلت هناك، لكنني تصلبت، أبحث في وجوه الناس عن تعبير يطمئني، لكنني لم أجد سوى الهول والمفاجأة، الجميع يعرف أنني حبيبته وزوجته المستقبلية، جميع الحي، فنحن متحابان من عمر، منذ زمن ليلي ومجنونها، منذ زمن روميو وجولييت، الجميع ينظر لي في أسف وعطف:

" مراد!! أين مراد، فليجيني أحدكم "

فرقت الزحام بيدين مرتجفتين ودخلت المنزل، الزحام يزداد باتجاه غرفة مراد، لا هواء هنا، لا مراد كي أتنفسه، أكاد أختنق، وقفت في العتبة، كان هناك، مسجياً في فراشه، تغطيه الملاءة وتحتضنه بين ثناياها.

كان هناك مسجياً، نامت عيناه للأبد، ونام معه قلبي للأبد، لم تقوَ قدمي على حملي حينها، سقطت أرضاً وصرت أحبو إلى حيث فراشه، والدته هناك تنسج وتنتحب على فقيدتها، وصلت إلى حيث هو، رفعت يدي المرتجفة لأبعد الملاءة لأرى وجهه، ربما للمرة الأخيرة أملاً عينيّ بصور له تكفييني لما تبقى لي من حياتي، لكنّ يداً أوقفني بحزم، رفعت عيني إليه، إنه خاله محمود:

لا أعتقد أنك تودين ذلك؟!
لا تفعلي يا أيليف.. لن يسرك المنظر.

ذرفت ما يحجب نظري من دموع وقبلت يديه:

لمرة أخيرة أيها الخال، للمرة أخيرة.

هز رأسه أسفاً وهربت من عينه دمعة، تركني وغادر الغرفة، عاودت النظر إلى ذلك
الجثمان المغطى بتلك الملاءة القاسية:

"بالأمس كنت تحتضينه وتدفيئنه واليوم تواريه ميتاً"

مددت يدي إلى الملاءة من جديد وأنا أتفحص الوجوه من حولي، أم مراد غارقة في
دموعها، أخته صفية لا وجود لها وبعض النسوة من الحي ثم ميرفت التي كانت واقفة
تبكي بحرقة، رسمت نظرة الاستفهام على وجهي فهزت لي ميرفت رأسها موافقة.

أبعدت تلك الملاءة بعد جهد، فأنا لم أكن أتقبل فكرة أن أرى مراد تحتها، لكنني
حينما رأيته قفزت إلى الخلف من هول ما رأيته، لقد كان وجهه غريباً.. يحمل أشد
تعبير الوجه قسوة وكأنه توفي تحت ألم عظيم، علامات خوف وفزع على وجهه
الوسيم ويده في وضع منع وكأنه كان يبعد شيئاً عنه.

حبوت إليه من جديد، هاتان القدمان اللعينتان تأبيان حملي، أبكي وأبكي، أشهق
وأشعر أن روحي تنسل مني وتعود إلي في كل شهقة، كأنني طفلة سرقوا منها دميتها
الغالية، بل أختلف، لقد سرقوا مني روحي؛ قلبي؛ بل حياتي بأكملها.

صرخت في الموجودين أن أتركوني معه وحدي لبرهة، أريد أن أودعه، من حقي أن
أودع آخر أنفاسي قبل أن تغادرني، قبل أن أتحول إلى مجرد هيكل بدور روح، لبي
الجميع رغبتني، حتى والدته، فهي تعرف مدى حبي لولدها، احتضنت جثمانه ودفنت
رأسي في صدره، سقيته بأنهار دموعي وأنا أصرخ، وأنا أسب وألعن:

اللعنة عليك يا ديكا، اللعنة عليك وعلى زواجك يا أغارداااااااا، والله الذي جعل حب
هذا الرجل في قلبي، لن أتزوج غيره لو كلفني ذلك حياتي كلها.

دُفن مراد ودُفنت معه، لم يتبق مني على هذه الأرض سوى طيف أنثى، أنثى سُرقت
أحلامها، أنثى حملت لتسعة أشهر بعد عقم دام سنين ثم أفقت لتجد أن وليدها
سرق منها إلى لا مكان، إلى حيث لن تجده مجدداً.

مرت عدة ليال وأنا أنتظر قدوم تلك السافلة، أود أن أحنقها وأسلب منها أنفاسها كما سلبتني أنفاسي، أقضي نهاري بالقرب من قبر الحبيب وأنتظر ليلاليه لأنتقم له.

مساء الاثنين، الثانية صباحاً

كنت كعادتي في فراشي أرسم مئات الخطوات وآلاف الحركات كي أقاتل تلك الأفعى الأناكوندا، فأنا بكل سذاجتي أتخيل أنني أستطيع مسكها وضربها بشدة حد أن أزهب روحها، أفكار لا جدوى منها، مخطوطات فكرية لا طائل منها وغير مفهومة اللغة، حينما سمعت ضحكات وضحكات، ضحكات مجنونة، ضحكات هستيرية ماجنة، ضحكات تحمل نكهة الشر، تأتي من كل مكان ولا مكان، بحثت عن مصدرها هنا وهناك، إنها هي.

وقفت الضحكات الماجنة تلك لبرهة، حتى أنني ظننتها غادرت ولكنها ظهرت فجأة من الركن البعيد للغرفة بستانها الأسود الجلدي الأنيق تجر ذيله الطويل خلفها، كم هي أنيقة وجميلة، قامة شاهقة وجسم ملفوف لفاً كأنه البان بقامته وبشرة بيضاء كالثلج دون شائبة واحدة، كيف لها أن تكون بهذا الجمال!!

تنبعت لنفسي ولأفكاري، ما هذا الذي أقوله، لقد بهرتني، اللعنة عليّ وعلى الجان الذي يدخل بدون استئذان، وثبت إليها حيث تقف:

ما الذي فعلته بمراد أيتها السافلة!؟

فأجابني بكلمة حملت برود القطب الجنوبي وثلوج سيبيريا كلها وهزت كتفيها:

قتلته.

بدأت دمائي تغلي في رأسي غليان الجحيم وكنت كلما أثب إليها لأمسكها وأمزقها تختفي لتظهر من مكان آخر:

وهل قتلنا بالأمر الهين لديكم أيها السفلة!!.

أثب هنا وأقفز هناك، لكن لا جدوى، من يستطيع مسك هذه !!، لقد تعبت وبدأ قلبي يخفق كالطبل وتقطعت أنفاسي، توقف يا قلب هيا واحملي إلى الحبيب، هذا ما كان يشغل رأسي، جلست على الأرض حيث كنت وبدأت بالبكاء:

لكنني كنت أحبه!!
ديكا: ستحبين أغاردا، سيدلك
أيليف: لا أريد هذا اللعين

غضبت ديكاً وتحول وجهها لأبشع وجه رأيت في حياتي وصرخت صرخة هزت منزلي هزاً كاد سقفه يهوي علينا:

إياك أن تتعدي حدودك!!
أيليف: أنا لا أخافك ولا أخاف ملكك ولا أخاف شعبكم برمته لو اجتمع علي
ديكا: هذا يكفي، يكفي كلاً ما فارغاً، هيا علينا الاستحمام في ماء البركان.
أيليف: انصرفي إلى الجحيم، لن أذهب إلى أي مكان.

ضحكت ديكاً ضحكة عالية ولوحت بيدها، أشعر بشعور غريب، أشعر بأنني أذوب، أنا أتلاشى، تمتزج ذراتي بذرات المحيط، أتحوّل إلى مجرد موجات أثرية لا غير، وفجأة تبدلت الأرض غير الأرض، واختفى البيت من حولي، أنا جالسة هناك فوق قمة البركان دون أي جهد مني، والنار تعلو وتتطاير الشرر، صرخت في جزع:

عليك اللعنة يا ديكاً.

ضحكت ديكاً وقالت:

لن تستطيعي الوقوف في وجهي، لا تحاولي.

مسحت الدموع التي تملأ عيني واستويت وافقة في عزم:

إنه التحدي إذن !!

ديكا : لا يوجد تحدّي بيني وبين مخلوق عديم الحيلة مثلك .

أيليف : كيف أتتني تلك اللعنة !!

ديكا : ليست لعنة، إنه المجد

أيليف : من أين جاءني مجدكم المزيّف هذا ؟! كيف وقع علي الاختيار؟!

ديكا (بدون اكتراث) : أنتِ من اخترتِ أن تكوني زوجته !!

أيليف (مصدومة) : كيف ؟!
ديكا : نعم أنتِ تلبسين خاتم الخطبة ؟!
أيليف (بجنون) : أي خاتم !!

سحبت ديكا يدي ووضعتَه أمام ناظري ثم مدت يدها لترفع فكي وتغلق فمي المفتوح
عن آخره بسبب الصدمة :

هذا .
أيليف : ل.. لك.. لكن !! هذه هدية من ميرفت .

هزت ديكا رأسها بلا اكتراث وأشاحت بوجهها

أيليف : ماذا تقصدين اخبريني ؟!
هل تقصدين أن ميرفت هدتني لعنتها !!
لا لا لا تقولي ذلك
لا أصدق، أنا لا أصدقك أ.. أ.. أكاد أجن

رفعت عقيرتي صارخة بكل قوة : ميرررفت.

سقطت على الأرض، فالصدمة سلبتني قدرتي على التحامل والوقوف، كيف لميرفت
أن تفعل بي ذلك، لو أنها طلبت مساعدتي لفديتها بنفسي، كيف فعلت، عقد
الموقف لساني السليط، لم أحتسب لهذا الانكسار حساباً، رفعت عيني ونظرت إلى
عيني ديكا، كانت نظراتها مليئة بالتحدي والانتصار، ونظراتي خجولة ومليئة
بالهزيمة، مرارة الخذلان في لساني، رسمت ديكا ابتسامة استهزاء على شفيتها جعلت
قلبي يتقطع ألماً، رفعت يدها ولوحت في الهواء.

حُملت عن الأرض دون أدنى مقاومة، وها أنا أتوجه نحو فوهة البركان كأنني دمية لا
إرادة لها ولا سلطة، لا أشعر بشيء وليس لدي أدنى رغبة في منع هذا، هل سأموت
في هذه النار المستعرة!! أو في ذلك الماء المغلي!!، لا يهم، فلترقد روعي بسلام .

وصلت إلى فجوة عظيمة بقطر المائة قدم أو يزيد، لا أدري، ماؤها يغلي غلياً
والفقاعات تتكون وتنفجر من شدة الغليان، بخار يتصاعد وصوت السعير يصم
الآذان، أوقفوني في مركز البركان لبرهة، نظرت إلى الأسفل ،

"هل يعقل أن أكون هنا ولا أشعر بأي حرارة !! "

ثم فجأة بدأت أنزل بشكل عمودي، جفلت، ها أنا أقترّب من تلك المعادن المنصهرة شيئاً فشيئاً، انحسرت المسافة بيني وبين مصيري المحتوم، لامست قدمي ذلك الخليط اللاهب البرتقالي المخيف فسرت قشعريرة في جسدي جعلت شعر رأسي ينتصب، يا للعجب، إنه بارد كالثلج، أنزل وأنزل، ثم غمرت في مياهها بالكامل، أخرجوني منها، ثم غمرت ثانياً وثالثاً، مزيج منعش وغريب ورقراق بلون الياقوت له رائحة عطرة جداً، كأجمل العطور التي شممتها يوماً، وطعمها ألد من الحليب والعسل المخفوقين معاً، أخرجوني منها، ثم حملت بعيداً حيث تقف ديكاً.

وقبل أن أصل كان القميص والبنطال قد نشفا تماماً، وكأن الماء لم يمسه قط، مددت يدي إلى شعري، إنها جافة هي الأخرى، تركوني أمام ديكاً فابتسمت ابتسامة مشرقة قائلة:

ها أنتِ ذاء، جميل

مدت يدها إلى شعري وجذبت خصلة منها تداعبها بين يديها :

أربعون ليلة قمرية كهذه ومائة وعشرون غطسة في هذا الماء وستصبحين منا، تستطيعين معايشتنا وتحملين بعض صفاتنا، صحيح أنك لن تكوني جنية بنسبة ١٠٠٪ ولكن هذا يفي بالغرض .

رفعت يدها وفرقت بأصابعها ليحيطنا جدران منزلي من جديد وكأننا لم نغادر أبداً، تلفتُ حولي استغرباً فقالت :

ستحتاجين بعض النوم والراحة .

وضعت يدها فوق رأسي لينسل مني وعيي رويداً رويداً، ضباب يغزو عيني وأهوي على الأرض بلا حراك.

فتحت عيني بعد نوم هانيء، أشعر بالراحة، لا صداع، لا ثِقَل، لا أنا، كأنني نمت دهرًا من الزمن، جلت بعيني في المكان الذي لا أشعر بأي انتماء إليه:

أين أنا؟!!

أنا هناك، مستلقية في فراشي الوثير، أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسي وتتواهب إلى الشاشة واحدة تلو الأخرى:

ماذا حصل؟!

تفحصت زوايا ذاكرتي، فتحت باباً وأغلقت باب وأسدلت الستار على ما لا أريد ذكره، شهقتُ من ذلك الشريط الذي يتراءى لي:

لقد كنت مع ديكا البارحة .

لقد غمرتُ في الماء .

ثم تذكرت الخاتم، آه ميرفت، يجب أن أصل إليها بسرعة .

ركلتُ الملاءة لتطير بعيداً وقمت مسرعة، لم يمر سوى بضع دقائق وكنت في شوارع الحي أعدو باتجاه منزل ميرفت مخلفة ورائي والدتي مع كم الأسئلة التي انهالت علي فور رؤيتها إياي، لم أسمع سوى صوت أفكاري، يجب أن أتخلص مما أنا فيه، يجب أن أنتقم لمراد، سأجعل أغاردا يصرف النظر عن الزواج بإنسية مدى حياته الباقية.

وصلت هناك وصرت أدق الباب بشدة حتى أنني خشيت أن يترك مكانه وينهار، وحينما فتحت لي أم ميرفت مرحبة مبتسمة تركتها خلفي كما تركتُ والدتي هناك واتجهت إلى السلالم أثب عدة سلالم معاً، وقبل أن أصل كانت ميرفت قد فتحت باب حجرتها على إثر الجلبة التي عمت المنزل الهادئ، وقفت أمامها ورمقتها بنظرةٍ مقت لو كانت سهماً لأردتها قتيلة، ثم رفعت يدي وهويت بها على خدها تاركة آثار أصابعي تلتهب وتحرق روحها وتساءلت :

لم فعلت ذلك؟!

انفجرت ميرفت باكية وهوت على الأرض تنسج، تخرج منها عبارات الاعتذار متقطعة وغير مفهومة، لم أشرع في احتضانها وتقبيلا كما كنا نفعل في مواقف مثل هذه، بل غلف الجليد قلبي ولم أتحرك ساكنة .

طال بنا الموقوف، أنا واقفة أرمقها وهي على الأرض تتلوى في نيران الندم والألم، هدأت ميرفت وعم سكون قاتل بيننا رفعت فيها ميرفت ناظرها نحوي، تبادلنا تلك النظرات الباردة فبادرت :

لقد تغيرتِ إذن!!؟

أيليف : تغيرت !!
ميرفت : لقد غُمرتِ في الماء أليس كذلك !!
أيليف : وماذا في ذلك !!
ميرفت : تلبدت مشاعرك وهذا أول ما يحدث
أيليف : وهذا بفضلك طبعاً، شكراً لعطايك

ثارت براكين ميرفت من جديد وسال حمم دموعها من جديد تحرق كل ما تمر عليه
أمامها، لا زلت أشعر بقساوة ما تعانيه، أعلم بأنها تحبني، أنا على يقين من ذلك،
صرخت فيها وأنا أهز كتفيها بشدة :

لم فعلتِ ذلك يا ميرفت؟! لم!!
هيا كفي نحيباً وتكلمي؟!
ألم نكن أختين لم يحملهما بطن واحد!!
لم قتلتِ حبيبي وسلبتني حياتي!!
تكلمي هيا كفي بكاءً

احتضنتني ميرفت بقوة، صوت شهيقها ونحيبها يمزق نياط القلوب :

يجب أن تقاومي يا أيليف
فعلت ذلك لأني كنت أعلم أنك أقوى مني
سوف تستطيعين التخلص من هذه اللعنة
أما أنا فلا
أرجوك حاولي
سأساعدك.

(4)

جاءت غاضبة جداً، باردة جداً، عيناها تنطقان بالويل، لقد تغيرت ملامحها، إنها اليوم أجمل بكثير مما هي عليه، بشرتها أشد بياضاً وجمالاً من ذي قبل، لكنه بياض شاحب مغطى بذلك السواد الذي ترتديه على حبيبها.

هوى كفها على وجهي ينم عن مقتٍ دفين، حافراً أثره على وجهي وفي قلبي أيضاً، لم أستطع تحمل تلك الصدمة، سقطت أرضاً، أنا أنزف، أنزف ندماً على ما اقترفته يداي وشلال دمعي يصب.

لم تحرك أيليف، بقيت في مكانها كالطود على غير العادة عندما تراني أتألم تهب إلي مساندة، لكنها اليوم تختلف، لقد تلبدت، تغيرت جداً، أصبحت على يقين الآن بأنها غمرت في ذلك الماء اللعين، وجمالها الأخاذ وشحوب بشرتها خير دليل على ذلك.

حاولت استعطافها لكن دون جدوى، لم تشفع لي أنهار دمعي حيث كان فيض أسئلتها ينهال علي:

لم فعلتِ ذلك يا ميرفت؟! لم!!
هيا كفي نحيباً وتكلمي؟!
ألم نكن أختين لم يحملهما بطن واحد!!

لم قتلتي حبيبي وسلبتني حياتي!!
تكلمي هيا كفي بكاءً

ملتُ على يدها ألثمها وأحاول استمالتها من جديد، قد أفقد صديقتي للأبد إن لم
أنجح في إثارة مشاعرها، حنانها فقلت :

يجب أن تقاومي يا أيليف
فعلت ذلك لأني كنت أعلم أنك أقوى مني
سوف تستطيعين التخلص من هذه اللعنة
أما أنا فلا
أرجوك حاولي
سأساعدك
سأحكي لك كل شيء.. كل شيء

رمقتني أيليف بتلك النظرة الحانية، جثت على ركبتها ودفنت رأسي في صدرها،
احتضنتها بشدة؛ بشدة، كما لم أفعل من قبل، ها هي تعود إلي :

لن أسمح لأغاردا أن يسلبني إياك
أيليف : وهل ستفعلين؟!
ميرفت : سأشرح لك كل شيء بالتفصيل
علينا إيجاد الثغرة التي تحل هذه اللعنة عنك
أيليف : تكلمي يا ميرو

ميرفت : هذا الخاتم ملعون، تنتقل لعنتها عبر إهدائها،
يمكنك أن تختاري أي فتاة وتنوي أن تتنازلي عن مجدك لها، سيظهر لها الخاتم
بشكل ملفت يدهشها ويحبس أنفاسها وحينما تطلب منك تجربته وهذا يحدث بلا
أدنى شك، تنفك اللعنة عنك وتتحول لها، يمكنك تجربة ذلك، تخلصي من هذا
الخاتم وللأبد يا أيليف .

أطرقت أيليف رأسها حزناً وبدأ غيث دموعها بقطرة:

نفس ما حصل معي
كيف لم يرق قلبك لي
كيف استطعت أن تهديني تلك اللعنة؟!
ميرفت : أنا آسفة يا أيليا، كانت نغزة من الشيطان
أنا آسفة حقاً

أبعدتني أيليف وهبت واقفة، والشرر يتطاير من عينيها، روحٌ تغلي دون لإطفائها من سبيل، مسحت دموعها بكم قميصها الكاحل :

لكنني لن أقترف ما اقترفت
لن أمنح أحداً هذه اللعنة
سأتحداها لوحدي
إما أن أقتلها أو تقتلني
وثار مراد في ذمتي ليوم الدين .

ذات ليلة (7)

أنت الآن تعرف نصف القصة ولكن الذي لا تعرفه أنني كنت أحب هذه الرواية جداً وقد حفرت أحداثها في مخيلتي.. ورغم ذلك أنا لا أذكر اسم الكاتب، يخيل إلي أنني قرأت على غلافها عبارة (مستوحاة من أحداث حقيقية)، لكن الأحداث محفوظة هناك في ركن لا تصل إليه أيادي النسيان ولا تمسح عليه يد الزمن، أسرد الأحداث بتتابع، وسيل الكلمات ينطلق مني بشغف، وهم يحيطونني بعضهم متكاً وآخرون ساهون.. كلٌ سافر بمخيلته في أحداث تلك الرواية، أحرك يدي في الهواء موضحاً مجريات الرواية والكثير الكثير من التفاصيل الصغيرة أستذكرها بين فينة وأخرى، أرفع عقيرتي عند الضرورة فيجفل أحدهم من نومه وأخفض صوتي حينما يخبو الحدث، تفغر هذه فاها وتداريه بيدها الناعمة مخبأة حبات اللؤلؤ اللامع خلفها.. فاتحة عينيها الجميلتين عن أوسعهما.

الجو مشحون بالترقب وصوت وقع حبات المطر يعزف سمفونية رهيبة تضيف للمشهد نكهة إضافية، يبرق الرعد لينير ظلام اليخت، صوت صفير الريح يهياً لك جواً مربعاً بمساعدة الظلال المهتزة للشموع المضاءة هنا وهنا، أكمل سرد القصة؛ لا زال هناك الكثير، ذقت البطلة الأمرين.. مرارة فقدان الحبيب وهي تسري في رحلة فقدان الذات بعد ذلك، تمشي في طريق مشته ألف مرة منذ دخولها الجامعة لكنها لا تتعرف على شيء، لا تلك الجدران ولا هذه الأشجار المنتصبة هنا منذ أمد، كأنها لأول مرة تسمع زامور السيارات الكثيرة في هذا الوقت من اليوم؛ ولأول مرة تسري في

هذا الطريق المزدحم بالطلبة الوافدين والمغادرين من الجامعة، تصطدم بهذا وذاك، وجوه غريبة.. تحمل معالم جديدة، تعابير لم ترَ مثلها من قبل، علامات الاستغراب ترتسم في وجوههم وكأنهم يرون كائناً عجيباً، مخلوقاً لا يشبههم ولا يمت لهم بصلة، تلتفت يميناً وشمالاً ملصقة محاضراتها على صدرها المختنق، تزفر ناراً وتشهق زمهرياً، بركان يتقلب داخلها منتظراً لحظة صفير.. صفير ثم انفجار مروع يمحو من داخلها كل ألم شعرت به منذ أن لبست ذاك الخاتم؛ انفجار منتقم يندثر بعدها كل من آذاها وتسبب بكل ذلك، تلح عليها أفكار غريبة وأحاسيس مقلقة، كلمات لا تزال مبهمة لها تتراكم في ثنيات رأسها، ولا قدرة لها على حلها.. ليست هي التي ستحل كل ذلك.

تعبّر بوابة الجامعة محدقة بتفاصيل لم ترها من قبل.. تسمع صوتاً ما يحييها لكنها لم تلاحظ أحداً؛ تجلس هناك على أحد المقاعد الجانبية وتفتح محاضراتها لتراجع شيئاً بعد غياب دام لأسابيع.. لم تجد شيئاً سوى كلمات مائلة وحروف متراقصة رقصة الموت الهائج.. تسري وكأنها معسكر للنمل الأسود، تتشتت لتجتمع من جديد مشكلة وجهاً غير واضح المعالم لشاب أقل ما يقال عنه أنه فائق الوسامة؛ الصورة تتكدر بالتدرج وتتحول إلى مجموعة مربعات بالغة الصغر.. ثم تتضح من جديد لتتحول إلى صورة لأبشع شاب يمكن أن تتخيله فتاة.. تجفل أيليف من غفلتها وتُسقط الكتاب على عشب الحديقة الرطب، تحملها بيديها المرتجفتين لتتمعن فيها من جديد لكنها لا تجد غير حروف عادية مرتبة في كلمات تتحدث عن القانون الدولي.

مددت يدي دون تعمد مني إلى رأسها الذي لا يزال بين صدري وكتفي.. مسحت على شعرها الناعم الذي فردته ليغطي جسدي المتعب الهائم في عشقها؛ رفعت إلى رأسها ونظرت بعينين ممتلئتين بالدمع اللامع.. كان صدرها يهتز لاهجاً وذقنها يرتجف بفعل البكاء الذي تحاول كتمانها، دفنت نفسها في صدري أكثر وعادت تحديق في ذلك الذي لم يشعر بحبها يوماً، أشعر بما يختلج خاطرها لأنني أشاركها نفس الشعور.. شعور يشعل الصدر جحيماً، حب من طرفك أنت وحدك؛ دون أن يحس بك الحبيب، أبعدت يدي عن رأسها ضجراً لكنني عاودت تمسيده في تردد.

رفعت إلي نظرها من جديد ونبست بكلمات مخنوقة قائلة:

أنا أعلم يا رغيد، أعلم بكل ما تكنه لي لكنني فضلت التجاهل، فضلت أن أتبع حلمي المستحيل وأبديه على رجل يحبني بكل جوارحه مثلما تفعل أنت.. أتعرف لماذا؟

وحينما حاولت النطق أسكتتني بوضع أصابعها على شفاهي قائلة:

لا.. لا تقل شيئاً، بل أنا أجيب؛ لأنني وقحة.. وقحة لدرجة أن أبكي على صدر رجل على رجل آخر.. وقحة لأنني تجاهلت في ذلك مشاعرك وحطمت غيرتك وغرورك، أنا متأسفة يا رغيد، متأسفة جداً وطوقت عنقي بذراعيها وبدأت تذرف الدموع حتى صعق فادي من المشهد لكنها لم تأبه بأحد وضممتني إليها أكثر.. مضى الموقف لدقائق قبل أن تهدأ شيئاً فشيئاً، حلت يديها وابتعدت عني في هدوء وحدقت في عيني بقليل من التسبيل (وربما لم تكن تتقصد ذلك) وأردفت:

أنت عظيم لأنك تملأ الفراغات التي تركها الآخرون أو تلك التي تكونت بفعل الزمن أنت تداويها وتصححها، أنت عظيم كجيش بأكمله بقائده وجنده.. تتدخل في تلك المساحات بحنكة وفطنة لتحمي تلك الأراضي من هجمات عديمي الضمير، أنا غبية إن لم أفكر جدياً بك وبحبك؛ لطالما كنت غبية، لكن آن الأوان أن أوقد شعلة ذكائي، أظن أنه آن الأوان.

وراحت تحط رأسها على كتفي مجدداً، لاحظتها استسلم قلبي عن التصدي وهام في حباها من جديد ورحت أردد ما يعجبني من كلام د. رفعت إسماعيل:

لن أتوقف عن حبك يا
حتى تحترق النجوم
وتفنى العوالم
حتى تتصادم الكواكب وتذبل الشمس
وحتى ينطفئ القمر
وتجف البحار والأنهار
حتى أشيخ فتتأكل ذكرياتي
حتى يعجز لساني عن لفظ اسمك
حتى ينبض قلبي للمرة الأخيرة
فقط عند ذلك ربما أتوقف
ربما..

ذات ليلة (8)

حمل إلي النادل مظروفاً حتى خيل إلي أنه يحمل طائراً بين يديه، طائراً يحمل أخباراً سارة.. طائر السعد راق لي أن أسميه، تسلمته بيدين مرتجفتين.. بحثت في الوجوه المحدقة عما يهدأ روعي ويخفض وقع دقات قلبي التي تنبض في حلقي، أغمضت عيني وتنفست بعمق ثم استجمعت ما بي من شجاعة لفتح ذلك المظروف، بكثير من الشغف والتصميم.. والأفكار تحوم في رأسي هل يعقل أن يصلني ما أريد، لكن ما وجدته من كلمات فاقت كل ما قد يجول في خاطرك وخاطري، قرأت في همس مكتوم:

أميرة قلبي جمان..

تعرفين أنني لا أجيد تنسيق الكلمات وذوقي في اختيار الأشياء ينقصه الشيء الكثير لكن ما أرسلته هذه المرة شيء مفيد، شيء يساعدنا في الإبحار في بحر الهوى فأنا مذ رأيته وأنا في حبك غريق.

أمير..

رسمت ابتسامة من بين دموع تشكلت في زوايا عيني ونظرت في الوجوه المترقبة
وقلت:

إنه هدية عيد مولدي.

فارتجّ الجمع في تصفيق و صفير وما إن انسحب الأغلبية وبقي الأقربون لي حتى دعوتهم لقضاء الليلة على متن اليخت الحامل لاسمي، كم فرحتُ بهذه الهدية كما إنني حزنت لأنني غالباً ما أتهم أمير بأنه يصرف نقوده على أشياء غير ذات أهمية حتى حُفِرَ كلامي في ذاكرته؛ يا له من مسكين.

يا ليتني لم أتمنّ أن تكون ليلة مختلفة تحفر في الذاكرة، ما إن وصلنا عرض البحر حتى بدأت السماء تولول على فقيد لها، تذرّف الدموع بغزارة وتصرخ بأعلى صوتها شاقةً بذلك صمت الليل البهيم، الأمواج تلطم خدودها وتشق ما ترتديه من ثوب السكون الطويل، اليخت يتمايل بشدة وتقذف ما بداخلها يميناً وشمالاً.. اضطرّ الربان إلى التوقف كي يمنع غرق اليخت تحت أمواج بطول الجبال، متباهياً بسطوته، ساد الهرج والمرج وخيم الخوف على نفوس الحاضرين.. أحسست بتأنيب الضمير، قد أتسبب بموتهم جميعاً، يا لحظي العاثر اللعين.

بعد نصف ساعة من الرعب هدأ زئير السماء لكن المطر في انهمار مستمر، التحفنا بما وجدنا من دثار والتحمنا في مجاميع، كل ضم ياقته على صدره مهابة أو برداً، هناك من يستغفر ربه وآخر يتلو آيات من كتابه المقدس.. همس يسري في الجو الساكن ممزوجاً بوقع حبات المطر على جسد اليخت الحديدي، وإحداهن تبكي بصمت طارحة أطناناً من الهم مع كل زفير ثقيل.. تنحنح رغيد وطرح فكرة أظنها جيدة قد تنسينا ما نمر به منذ ساعة؛ فكرة أشبه بما عشناه في أيام الطفولة البريئة حينما كنا نجتمع حول الجدة لتروي لنا حكاية مرعبة عن الغيلان والكائنات المتوحشة، نصعق خوفاً ونهرب لندفن رأسنا تحت أذرع أمهاتنا.. تسكت الجدة لكن الحكاية لن تنتهي، نظل نكررها ونعيشها مع كل ظل أسود يتشكل على الحائط سهواً أو برفقة الكوابيس التي لن تتركنا حتى صباح اليوم الثاني؛ لكننا لم نكن نسأم ولا نتعلم.. كنا ننتظر الجدة كل مساء وفي نفس الموعد لنعيش الرعب من جديد.

فكرة أن يحكي لنا أحدهم حكاية في مثل هذا الجو لها متعة خاصة؛ لذا وافقنا على الفور، وبدأ رغيد يطلق العنان لمخيلته، ويضيف البهار الإضافي على طبخة رواية موجودة فعلاً حسب قوله.. أيليف تلك المسكينة التي انقلبت حياتها رأساً على عقب بسبب خاتم أهدتها إياها صديقتها.. قد نستقبل ما يعطى لنا برحابة صدر شاعرين بالامتنان لتلك المبادرة التي إن دلت فإنها تدل على عمق المحبة التي يكنها صاحبها.. لكن الهدية قد تدل على الكره، قد تكون جحيماً.

أكثر ما أخافني في تلك الرواية بأنها قد تكون حقيقية كما يستذكر رغيد، هذا يدل على قوة تلك الكائنات وسلطتها المطلقة في إخراس صوتنا وإلى الأبد.

ما لم أنسه في تلك الرواية الحادثة التي مرت بها أيليف، حينما كانت تسقي السجادة بدموع عينيها بعد أن فقدت حبيبها قابعة في ظلام غرفتها وملتحفة بسكون الليل رفعت رأسها لتجد ظلاً ذا شرر متشكلاً على هيئة شيء تظهر حدود رأسه وذراعيه لكن الظل يتلاشى عند ساقيه مشكلة كتلة من ظلام، ارتجفت أيليف على سجادة الصلاة ولو كنت مكانها لتوقف قلبي من شدة الفزع. يكمل رغيد..

خفض أيليف عينيها وأكملت صلاتها لكن ذلك الشيء أمرها بالتوقف.. لم تطعه وأكملت صلاتها رافعة صوتها بالتلاوة الكريمة؛ أمرها مجدداً بالسكوت والتوقف عن الصلاة لكنها عاندت كما تعاند كل شيء في حياتها تقريباً، أعاد الكائن أمره مراراً لكنها لم تستمع فصرخ ذلك الشيء صراخاً أنتزع معه قلبها الرقيق، رفعت إليه عينيها لتجد علامات الغضب بادية جلية إلى محياه المظلم، وعيناه تجدحان ناراً متلظية؛ أكملت تلاوتها وركعت ثم سجدت وحين رفعت رأسها كانت معلقة في سقف غرفتها رأساً على عقب مرفوعة من أحد قدميها، أبعدت ثوب الصلاة الذي انقلب ليغطي وجهها فوجدت وجه ذلك الشيء يحدق فيها في غل وقد طالت قامته لتربو من المترين والنصف تقريباً، أنفاسه العفنة تضرب وجهها المحتقن بفعل وضعها المقلوب، قلبها الصغير يقرع كالطبول، وصوته الصدى يوقر طبله أذنها بقوله :

حينما نأمرك بالكف عن فعلٍ لا يعجبنا عليك بالطاعة؛ الطاعة.

وبدأ صوته يتردد في أرجاء المكان كله ثم ابتسم بمكر كاشفاً عن أسنان تشبه الأنياب تاركاً لعبه يسيل هناك على السجادة، أفلت قدمها لتسقط على الأرض وترتطم بشدة أحست معها بأن عظامها تكسرت، رفعت نفسها بشدة وجالت بنظرها في المكان فلم تجد شيئاً.

بدأ بحثنا الحثيث لجمع المعلومات، عن كل واحدة ارتدت هذا الخاتم في إصبعها أو سمعت عمن ارتدته، في سلسلة مستمرة، كل واحدة تهدي هذا المجد لأخرى، مجدٌ مظلم، ملطخ بالدم، يحمل رائحة الموت أينما حل، كانت فاطمة هي من أهدته لميرفت، نازلي أهدته لفاطمة وهكذا دواليك ونحن في بحثٍ وتنقيب صباحاً وكوابيس تسلبنا راحتنا ليلاً.

ديكا تزورني لإكمال طقوس الغمر في ذلك الماء تارة وتارة أخرى تأتيني حاملة الويل معها، غاضبة، منذرة، التهديد والوعيد بأنها ستسلبني أحبتي واحداً تلو الآخر إن لم أكف عما أفعله، بحثي وتنقيي ذلك لم يعجبهم، يبدو أنني أقترب من الحقيقة، أنا لا أبالي، أنا آخر إنسية ستحمل هذا المجد المجحف، أنا آخر من يُسلب قلبها وحبیبها.

في ذلك الصباح الشبيه بغيره، ملل قاتل، لا شيء يتغير، لم يتبق لدي الكثير من الوقت، يجب أن أجد حلاً، سمعت طرقات عنيفة على الباب، القادم يحمل خبراً، هذه الطرقات ليست لزيارة عادية.

لم يمض سوى ثوانٍ على صوت فتح الباب حتى كانت ميرفت في غرفتي، تلهث من فرط الانفعال وربما السرعة:

أَيْلَا لَقَدْ وَجَدْتَهَا.. وَجَدْتَهَا
أَيْلِيف: مَنْ تَلِك؟!
مِيرَفْت: سِيدَة عَجُوز تَعْرِف الكَثِير عَنِ الخَاتَم
أَيْلِيف (مَتَحَمْسَة): أ.. أ.. أَيْن هِيَ؟
عَلِينَا زِيَارَتَهَا
هِيَ بِنَا يَا مِيرُو
مِيرَفْت : اِنْتَظِرِي يَا فَتَاة
إِنهَا لَيْسَتْ هُنَا
إِنهَا فِي قَرْيَة Güzel köylü (الجَمِيلَة القَرْوِيَة)
أَيْلِيف : يَا إِيْهِ، إِنهَا بَعِيدَة أَلَيْسَتْ كَذَلِكَ ؟!
مِيرَفْت : إِنهَا عَلَى بَعْد (1.200 كَم) مِنْ إِسْطَنْبُول
لَقَدْ حَدَدْت مَوْقِعَهَا عَلَى الخَرِيطَة
أَيْلِيف : سَنَنْطَلِقُ إِلَيْهَا غَدًا صَبَاحًا
هَل سَتَرَاقِبِينِي؟ أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟؟
مِيرَفْت : بِالتَّأَكِيد أَنَا مَعَكِ .

وَقَبْل أَنْ تَشْرُق شَمْس اليَوْم التَّالِي كُنَا فِي مَوْقِف البَاص نَتَأَهَب لِلصَّعُود، أَمَامَنَا رَحْلَة
شَاقَة، وَلَكِنهَا أَفْضَل مِنَ المَوْت فِي أَحْضَان الجَان بِالتَّأَكِيد.

انْطَلَق البَاص يَطْوِي تَحْتَهُ الطَّرِيق وَمَرَّت السَّاعَات سَمَّمْتُ فِيهَا النِّظْر إِلَى الأَرْضِي
الخَضْرَاء المَمْتَدَة عَلَى مَد البَصْر، سَمَّمْتُ تَقْشِير اللب وَسَمَّمْتُ مِيرَفْت الَّتِي تَعْرِف
سَمْفُونِيَّتَهَا الخَاصَة عِبْر فَتَحْتِي مَنخَرِيهَا وَهِيَ نَائِمَة:

" مَا هَذَا الضَّجِيج مِيرُو، أَفِيقِي هِيَ "

وَقَبْل أَنْ تَلْبِينِي مِيرَفْت انْجَرَفْت أَنَا مَعَهَا إِلَى العَالَم المَتَخْفِي خَلْف الغَطَاء الأَسْوَد
(النوم)، عَالَم تَشْعُر فِيهِ أَنَّكَ عَدِيم الوِزْن، تَفْعَل مَا تَشَاء، تَقْتَلِع الأشْجَار، تَمْشِي عَلَى
رَأْسِكَ وَرَبْمَا تَقُود طَائِرَة، مَرَّت سَاعَاتُنَا بَيْن النُّوم وَالْأَكْل وَالْأَحَادِيث الجَانِبِيَّة الَّتِي لَا
طَائِل مِنْهَا.

مَر بَعْض الوَقْت قَبْل أَنْ يَمْزِق سَكُون البَاص صَوْت السَّائِق الَّذِي يَدْعُونَا لِتَأَهَب،
قَرْيَة (Güzel köylü) عَلَى بَعْد ١ كِيلُومِتْر .

تَوَقَّف البَاص إِلَى جَانِب الطَّرِيق المَقْفَر وَتَرَجَلْنَا مِنْهُ نَحْن وَبَعْض الصَّحْبَة، يَبْدُو أَنَّهُمْ
مَنْ سَاكِنِي القَرْيَة أَوْ مِمَّن يَزُورُونَهَا دَائِمًا لِرُؤْيَا أَحْبَائِهِمْ.

بدأنا التوغل في القرية، عيون تحديق بنا في نهم وعلامات الاستفهام بادية عليهم، اقتربت من أحد الشيوخ متسائلة:

أين يقع منزل الحاجة جيرن (غزالة) ؟
الشيخ باستغراب : هل هي قريبتكم ؟!
ميرفت : شيء من هذا القبيل
الشيخ : إنها منعزلة في نهاية القرية، سيدة غريبة
اسلكوا هذا الطريق إلى نهايته ثم انعطفوا يساراً
بيتها هناك يقف وحده بين الحقول
ميرفت : شكراً لك سيدي

سلكنا الطريق ذلك بين المنازل والحقول، نتلفت يميناً وشمالاً من جمال الطبيعة هنا ثم انعطفنا يساراً لنجد المنزل واقفاً هناك شامخاً بين المساحات الخضراء، هيكل قديم أكل عليه الدهر وشرب لكنه ما زال قائماً كسلطان عثماني أشيب بأبي الاستناد إلى أحدهم، فكبرياؤه ما زالت في رونق شبابها ولم تذبل كجسده.

كنا كلما اقتربنا أحسست بشعور غريب، لهذا المكان هيبة خاصة، فأنا أشعر بنفس الشعور حينما تكون ديكا حاضرة، طرقتنا الباب بيد مرتجف، لا مجيب، أعدنا الطرق مرة واثنين، لا أحد هناك، مددت يدي لأعيد الطرق حتى هرب الباب من تحت يدي وانفج عن آخره، تسمرت في مكاني وجفلت ميرفت، استجمعنا ما بقي من شجاعتنا ونوينا الدخول.

تسللنا إلى الداخل على رؤوس أصابعنا، منزل كبير من الداخل، به من الأثاث القديم الذي يصور لك ما عاشه هذا المنزل قديماً، يبدو عليه ثراء أصحابه، كان عدد أفراده كبيراً، هناك اثنا عشر كرسيّاً حول المائدة، تخم الأريكة أنتيكا قديمة، رأيت مثلها في المسلسلات التاريخية التي تحكي حياة السلاطين والبكاوات ذات جلد أحمر جميل وأنيق.

تلفتنا يميناً وشمالاً، لا أحد هنا، ثم خطر على بالي سؤال فهمست :

ألم يقولوا أنها سيدة عجوز تعيش بمفردها يا ميرفت ؟
ميرفت (مرتجفة) : بلى، هذا ما قالوه
أيليف : هذا المنزل لا يبدو منزل سيدة عجوز، إنه مرتب جداً ونظيف جداً .
ميرفت (ضاحكة) : ماذا تقصدين، هل الجان من يقوم بتنظيفها !!

وما إن نطقت ميرفت بما نطقت حتى تهشمت خلفنا فإذنا كبيرة جعلت دماءنا تتجمد في عروقنا، بدأنا الجري بالاتجاه المعاكس وتوغلنا في المنزل أكثر وقلوبنا تتواثب كأنها قررت ترك مكانها.

وصلنا إلى بئر السلم لنجد في مواجهتنا عدداً من الغرف فقلنا:

أين تلك السيدة؟ هل علينا تفتيش المنزل بأكمله!!
ميرفت (هامسة): سنفتح الغرف واحداً تلو الآخر لحين إيجادها، لا مفر من ذلك .

وقبل أن تكمل ميرفت جملتها صُفق باب إحدى الغرف وانفتح عن آخره، تمسك كل منا بثوب الآخر متجمدتين، تلفتنا هنا وهناك، لا شيء:

هيا ميرو يجب أن ندخل هناك.

اقتربنا في حذر ودخلنا الغرفة لنتصلب أنا وهي، هناك في الضوء الخافت الذي يتسرب عبر الباب المفتوح شبح سيدة متشحة بالسواد جالسة على سرير قديم في ظلام الغرفة هذه، صرنا نرتجف خوفاً ومهابة، هناك طاقة في هذا المنزل، كم هائل من الطاقة السلبية، نطقت السيدة لتزيد ما نحن فيه من رعب:

اقتربا ولا تخافا.

كان صوتها حنوناً ومرتناً يبعث الراحة في الصدور، اقتربنا أكثر، لتمد لنا يدها متحسنة، يبدو أنها عمياء، هذا ما تراءى لي، مددت يدي إليها في توجس فأمسكت يدي، يداها ناعمتان وتبعث شعوراً من الدفء يغمر جسدي، على الأقل هي إنسية، ليست شبحاً وليست ميتة:

جذبتني إليها في رفق وأنا أجذب ميرفت خلفي ودعتنا إلى الجلوس بجانبها، أضافت:

أنا لا أحتاج إلى النور، فأنا أرى بقلبي، لكن إن كنتم تحتاجان نوراً فلنشعل شموعاً.
أيليف: سيكون ذلك أفضل

فنطقت الحاجة جيرن بكل هدوء:

الشموع !!

لتشتعل مجموعة الشموع الموضوعة في شمعدانات هنا وهناك كلها في آن واحد، صرت أرتجف، فأحست بي الحاجة، فهي لا تزال ممسكة بيدي، ضغطت عليها بقوة
قائلة :

لا تخافي أيليف .

أيليف (مصدومة متلعثمة) : كيف عرفتِ اسمي ؟!
الحاجة جيرن: لقد أخبروني به
أيليف : من هم !!

حملت يدي بين يديها وتلمست أصابعي واحدة تلو الأخرى وصولاً إلى الخاتم، تفحصته جيداً وتنهدت تنهيدة عميقة وكأنها لفظت أحشاءها معها وقالت:

كنت أرتديه قبل مائة عام أو يزيد قليلاً، كنت وقتها ابنة الـ ١٦ عاماً، أول حفيدة لزعيم القرية، لا أحد يجرؤ أن يثني لها كلمة، رأيتها في يد إحدى صديقاتي، ابنة مزارع فقير، لم يكن يجمعني بها غير المباهاة بهندامي وأحذيتي وشعري الناعم وهي تبتسم منبهرة بها، كنت أريها دميتي بثيابها الملونة وأشعر أن لعابها يسيل من فرط الإعجاب، هذا ما كان يجمعني بها، كبرنا قليلاً، لا أتذكر أنني رأيت عليها شيئاً أثار إعجابي منذ عرفتها، لذلك حينما رأيت الخاتم سحبتته من إصبعها من فرط غيظي،

"هل يعقل أنها تمتلك خاتماً بهذا الجمال!! "

لبسته في إصبعي وبدأ يشع نوراً ملأني فرحة وسروراً حتى أنني لم أنم ليلتي، كنت أنفحصها وأتبخر بها طوال الليل، مرت أيام وأيام لأعض عليها أناملتي،

" ما الذي فعلته بنفسي !! "

لكن كان علي إيجاد حل بأقصى سرعة فقممت بإهداء الخاتم لإحدى أكثر خادماننا طاعة وسكوناً، أخبرتها بأني أكافئها على خدمتها لنا في صمت ورضى، لم تستطع الفتاة التخلص من الخاتم، كانت وديعة أكثر مما يجب، لم تستطع إهداءه لأخرى، مرت لياليتها القمرية الأربعون واختفت، بحثنا عنها كل مكان توقعنا أن نجد لها فيها، لكنها اختفت في غير عودة، اختفت للأبد، ومنذ ذلك الحين حملت ذنبها، نبذت نفسي، وكرست نفسي لحل مشكلة هذا الخاتم، ودعوت الله كثيراً أن يطيل في عمري، لأرى لعنة هذا الخاتم تمحي ولا تعود، واستجاب الله لي وها أنا اليوم أبلغ من العمر مائة وتسعة عشر عاماً، مائة عام وأنا أنتظرك يا أيليف .

أيليف : لمَ تنتظريني يا حاجة!! لمَ أنا بالتحديد؟!
الحاجة جيرن : لقد أخبرتني، سيأتي يوم من تلك الأيام العابرة، تشبه غيرها لكنها
مختلفة، ستكون يوم الفصل، ستقرر فتاة أنها ستوقف هذه اللعنة بشجاعة، ستأبى
أن تتخلص منه في جبن وتحوله لأخرى، وها أنتِ يا أيليف، ها هنا، بحثتِ عني لأنك
تودين أن تكوني نهاية هذا الشيء (وأشارت إلى الخاتم)
أيليف : من أخبرك بذلك!! من؟!
الحاجة جيرن (في هيبة) : سكارديا
أيليف : من هي سكارديا؟!
الحاجة جيرن : الأميرة سكارديا، ابنة أغاردا
أيليف : وهل تريد مساعدتنا!!
الحاجة جيرن : تريد إيقاف ظلم أبيها لبنات حواء
أيليف : وماذا الآن ؟!

وقبل أن أكمل كلماتي، مدت الحاجة جيرن أصابعها إلى شفاهي أن اسكتي، رفعت
رأسها وتنفست بعمق ثم نادى بأعلى صوتها :

هي سكارديا.. كنتِ محقة، لقد تحققت نبوءتك
ها هي ذي أيليف هنا
تريد التخلص من الخاتم دون إهدائها لواحدة أخرى
تريد إنقاذ بنات جنسها.. إنها شجاعة
لقد وعدتني بأن تساعدني تلك الفتاة التي تقرر أن توقف ذلك
أنتِ وعدتني .. سكارديا!!

بدأت الجدران تهتز وتنفض ما عليها من غبار، نسمة هواء عذب هبت من لا مكان
أطفأت بعض الشموع وميرفت ترتجف في صمت، بدأت الظلال تحتشد ودوامه من
ضباب كثيف تدور هناك، وها هي تترأى للعيان.

شبح أنثى بمفاتنها وانحناءات جسدها تتجسد من الضباب وتحفها الظلال من كل
الجوانب، صورتها تتضح، بياض نقي يظهر ملوحاً، كأنها شمس غير شمسنا أشرقت
لتنير أركان المكان بضياء غير الضياء، تشع بوهج، شمس غريبة، شمس مبتكرة،
خلقت حصراً.. لعالم غير عالمنا تشع في الزوايا والأركان؛ ها هي أنثى بكل ما للكلمة
فتون من معنى، إنها استثنائية، أنا لم أر على وجه البقعة بجمال تلك الملامح
ونعومتها، تتسريل بالبياض في فستان أنيق يلتف حول خصرها كأنه أسراب الحمام
المحتفل بقدوم الربيع، بشرة بيضاء شاحبة بلون الثلج أسدل عليه ستار الليل في

القطب الشمالي المتمثل بشعرها الذي يتطاير خلفها بدون هواء، وجه مستدير ينير ما حوله مكوناً هالة مضيئة كأنها شمس نيسان.

تعجبتُ من جمالها وفغرْتُ فاهي، فضحكت لتأسر قلبي بصف اللؤلؤ المترص في حلقها، فسألت مندهشة:

إن كانت بنات الجان بهذا الجمال، ماذا يفعل أغاردا ببنات حواء؟!

سكارديا تمشي بتؤدة متجهة إلى الأريكة المواجهة لنا:

إنه الهوس يا حبيبي.. الهوس
الحاجة جيرن: أهلا بكِ سكارديا، مر وقت طويل منذ آخر لقاء لنا .
أود أن أشكرك على كل تلك العناية والخدم من أبناء جنسك لي على مر السنوات تلك.

سكارديا : لا شكر على واجب أيتها العجوز الطيبة

الحاجة جيرن : والآن ماذا ؟!

سكارديا : ماذا في ماذا ؟!

الحاجة جيرن : هل يعقل أن يفوتكِ حديثنا !!

ضحكت سكارديا وضحكت وحتى خيل لي أن جميع أزهار القرية أينعت بضحكتها، كأنها رنة الخلخال في قدم إحدى غانيات أعظم سلاطين العثمان وقالت :

أنا لا يفوتني شيء أيتها الطيبة، لكن أود معرفة ما تنوون فعله !!

ضغطت الحاجة جيرن على يدي واسترسلت:

أليف لديها النية في التخلص من هذا الخاتم دون تحويلها لأخرى، تود خلاص بنات جنسها من هذا الشر، أنتِ وعدتني بالمساعدة ؟!
سكارديا : أعلم أنني وعدتك لكن لا يسعني فعل الكثير، أنتِ تعلمين أنني محكمة الوثاق بالقوانين، لقد عانيت الكثير بسبب مساعدتي لكِ كل تلك السنوات، لا أريد المزيد من النبد .

انتفضت إليها وجلست عند قدميها أتشبث بذلك الثوب الأنعم من الحرير ذي العطر الخلاب الأطيب من ريح المسك نفسه :

أرجوكِ سكارديا، عليكِ مساندتي، لم يتبق لدي الكثير، إني أتحوّل أرجوكِ سكارديا (مطرقة رأسها بيأس) : لا أستطيع فعل الكثير، أنا آسفة .

مسحت بيدها على شعري وأكملت:

ولكن أيليف، افصلي ذلك الخاتم عن جسدك، افصليه، حاولي ذلك وتحلمي .

وبدأت تختفي وتتحول إلى ضباب من جديد وهي تردد :

افصلي ذلك الخاتم عن جسدك يا أيليف،

افصليه يا أيليف

افصلييه .

صوتها يتردد وينعكس على جدران المنزل مراراً ليرتد ويعود.

أرجوك لا ترحلي

لا

سكارديا

لا

لا ترحلي

وأنا أتشبث بفستانها المسدل، تحولت إلى سراب بين يدي واختفت؛ اختفت دون أن أدرك ما يجب علي فعله، تركتني أتقلب في نار، تتلظى أفكارني وتتلاطم، أتخبط في طريق مظلم لا نور ظاهر في نهايته .

دوت صفارات الإنذار وبدأ هطول الأمطار معاً، هذه أنا حينما أبكي، تكورت على نفسي، أنتحب كالرعد، روجي تنسل مني في كل شهقة، لا أمل يلوح في الأفق، لا فكرة تومض في رأسي .

هَبَّتْ إلي ميرفت مساندة بعد أن كانت قد اختبأت في ركن المكان خوفاً، عانقتني بقوة :

كفي أيليف سنجد حلاً .

حاولت الحاجة جيرن الوصول إلي لكنها تعثرت في ظلمة عينيها وسقطت، توجهت إليها ودموعي تتساقط مدراراً، ساعدتها على النهوض، وجلسنا على حرف الأيكة، مدت يديها إلي وضممتني إلى صدرها بحنان الأم وقالت :

كنت أتوقع أكثر من ذلك، كنت أنتظر المساعدة ولكن !!
كفي يا ابنتي سنجد حلاً
أنا أشم رائحة الخلاص، ستنجحين
أنا متأكدة .

كان صوتها يرتجف، والكلمات تخرج مخنوقة، رفعتُ رأسي إليها، كانت تبكي، الدموع
تهرب من عينيها الأبيتين خلسة، مددت يدي لأمسح دمعها لكنها أبتهت، أبعدت
يديّ، مسحت وجهها بغطاء رأسها بكبرياء وأضافت:

ستنجحين أيليف .

نظرتُ إلى الخاتم في إصبعي، شردت لبعض الوقت لعلي أجد بصيص نور يقود إلى
الخلاص، وحينما عدت إلى واقعي سألتها:

ما بداية هذا الخاتم ؟!
هل تعرفين من أين جاء ؟!
حدثيني يا حاجة
عني أهتدي، عليها تفيدني في شيء

قالت الحاجة جيرن :

أعرف أن إحدى الفتيات قد اشترته من بائع الخردة، ذلك البائع.. الذي لا أحد يعرف
من أين يأتي بتلك البضاعة المخيفة، سكاكين صديئة غريبة لاتشبه سكاكيننا، ولا تلك
الأواني، ولا قطع الحديد تلك التي لا نعرف من أي ماكينة سقطت، أو انتزعت، كل
ما لديه غريب، حتى سمعت عنه حكاية مخيفة، إنه يسكن المقبرة، المقبرة التي في
شرق المدينة، يقال أنها مقبرة كانت للمعاقبين من القتلة والسحرة وقطاع الطرق،
كل الجثث التي مات أصحابها سحقاً بالقانون هُناك، سمعت أنه يسكن هناك،
يسكن قبرا غريبا لا للحد، بل هو كغرفة سرية تحت الأرض يدخل إليها عن طريق
سرداب، فتحته صغيرة، يقال أن الرائحة النتنة تفوح منه لدرجة كل من يشمها يرغب
بالتقيؤ، فضلا عن تلك الأصوات الغريبة التي تُشبه أنات مريض قبل موته بساعات،
ويحكى أن أحدهم قبل تتبع ذلك البائع بسبب خلافٍ شخصي، وراه يدخل داخل
ذلك السرداب الصغير، متكوراً ككرة صوف، ليختفي عن الأنظار، أما عربته وكل ما
فيها من خردة، بقيت تسد مدخل السرداب من زاوية النظر، خرج البائع بعد دقائق،
بوجهٍ دموي، غريب، وكأنه كان في شجار مع أحدهم، ثم التفت إلي الشخص
المختبئ، كانت عيونهُ إحداهما قد انقلبت طوليا بشكل مخيف، والثانية قد طُمرت

ببعض الطين، وبدأ بالضحك، والضحك، بصوتٍ عالٍ، حتى شعر ذلك التابع بالفزع، ومن ذلك الحين، أصيب ذلك الشخص بلوثة في عقله، وما زال يحدث بتلك القصة، إلى أن مات، لا أحد يعرف حقيقة ذلك البائع، أهو الشيطان نفسه؟ أم رسوله؟ ماذا في ذلك القبر، لكن تلك الكتابات التي على الخاتم هي كلمات عبرية، وطلاسم عرف عنها أنها من سحر الكابالا اليهودي، يقال أن من حاول فك شيفرته لقي حتفه، لا أعرف غير ذلك .

هاج عقلي وماج فأخذت فائزة خشبية كانت مركونة هناك على الإنترنت وبدأت أضرب الخاتم وأضربه، حتى آلمني إصبعي، يبدو أنه لا خلاص.. حملت حقيقتي ورحلت دون أن أنبس بكلمة وأنا أضرم يدي من شدة الألم ..

ذات ليلة (9)

ماذا ستشعر حين تخسر، حينما ينزل أحدهم بهراوة ثقيلة على رأسك المزدهم بالتمنيات؛ حينها تتساقط الأحلام واحدة تلو الأخرى، لن تستطيع جمعها من جديد، ولا اللحاق بها، تلك الأحلام التي حملتها في كيس مخروم ولم تلحظ أنك تفقدها بالتدريج على طول الطريق.

جمانة.. ذلك الحلم الذي زرعه والدي في رأسي وصار يسقيه بحب وتفان منتظراً أن يثمر ويُسبغ بثمره جوع عائلة المعلولي، حلمٌ اهتممنا به جميعاً وروينا به بشهور من الانتظار وسهر الليالي والتفكير والتخطيط، حتى السحر والأعمال نالت من هذا الموضوع جانباً من خلال ذلك الخاتم الذي ابتاعته أمي من إحدى الساحرات المعروفات بالسحر الأسود والسحر اليهودي، ظننا أنها ستزرع المحبة في قلب جمان، لبسته على الدوام ولمست به جسد جمان مرات عديدة وحينما خلناها أزهرت وأثمرت صعدت السلم كي ألتقط ثمرة هزت الشجرة بجذعها وأسقطتني من عليائها تجاه قساوة الأرض الجرداء، ارتطمت بالأرض فتحطمت كبريائي، وقفت على قامتي بصعوبة وحينما ابتعدت رأيت الشجرة تهدي ثمرها لآخر في حب وامتنان تبتسم لكلماته المكتوبة على صفحة بيضاء مصنوعة من جذعها المقطوع.. حينها أدركت بأن المعلولي صار اسماً له ماضٍ بدون حاضر ولا مستقبل.

حين ركبنا ذلك اليخت المسمى " جمان " عصف بنا البحر كما تعصف بي أفكاري، إنها عدالة السماء.. أن يشعر الجميع بما تشعر به، لكن ما كنت أحسه كان أعمق من ذلك بكثير، فأنا لم أخسر حلمي فحسب، أنا خسرت معركة آل المعلولي ضد الانزلاق إلى هاوية الإفلاس وممحاة الوقت كفيلة بمحوهم من سجلات العوائل المالكة بعد ذلك؛ كنت أرى أنفسنا في منحدر.. نزل بسرعة جنونية نحو القاع وكنا بحاجة إلى مكابح، مكابح توقف الانحدار الشديد وليس هذا فحسب بل وتعيد رفعنا من جديد، لكن جمانة شاءت غير ذلك أو ربما ليست هي بل هو القدر.

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان بدأ رغيد يحكي حكايته التافهة، يحرك يديه متفاعلاً مع أحداث الرواية، أي رواية تلك التي تُركد بها جواً مشحوناً بهذا الكم من المشاعر.. الخوف، الرعب، وحتى الخذلان واليأس، لا حكاية تطفى تلك النيران

المتلظية في صدورنا والأمر من ذلك كله رؤية من تحبك بجنون قد أفاقت من غيبوبة تعلقها الكبير.. شفيت من إدمانها بك؛ وجدت باب المصيدة أخيراً لتنطلق حرة، لتفتح عينها الذي أغشاها عشقك وترى العالم من جديد، رأيتها استوعبت ما يجري أخيراً، علمت من يهواها بشغف، أحاطت عنقه بذراعيها، يديها اللتين تردان لروحي المنهكة الحياة؛ بدأت تذرف الدموع وما إن جف دموعها حتى همست في أذنه بما قطع أوتار قلبي كأنني سمعتها رغم أنني لم أسمع شيئاً، ثم راحت توسد رأسها على كتفه ليلفها هو بذراعه، ابتسمت من بين دموعها المتبسة وأبعدت خصلة من شعرها البني التي قررت أن تنسدل على عينها العسلية لتلتقي عينانا.. حينها فقط عرفتُ أنني خسرتها إلى الأبد، شعور اعتراني كصورة الاحتضار.

تواريت عن الأنظار لعدة أيام وأغلقت الباب دون أحبتي، قطعت التواصل مع الجميع حتى أنني تركت المأكل والمشرب، أفضل الموت على أن أكون زوجة لأغاردا القاتل، اليأس المستولي على أُمي جعلها تلجأ إلى ميرفت لمحاولة إقناعي بالعزوف عن تصرفاتي تلك، لكن حتى ميرفت التي أحبها كثيراً لم أعد أحتملها، بتُّ لا أطيق حتى نفسي، ثقل علي ملبسي، زارني ميرفت عدة مرات، محاولة ثني عن قراري، لكنني طلبتُ منها الرحيل .

صرت أفكر لساعات، أهيم في زوايا الغرفة، لا مكان يريحني ولا زاوية تأويني، أتجول في ممرات عقلي باحثة عن إجابة مناسبة.. بصيص أمل، ومضة فكرة، قد أكون وجدت بعض الأفكار السطحية التي لا طائل منها، ولكن لنجرب كل شيء .

لكي أزيل هذا الخاتم، أحتاج بعض الأدوات، بالتأكيد أحتاج إليها.. لذلك انتظرت غروب الشمس وبعد أن اعتنق الليل الأفق وآوى الناس إلى فراشهم، ها هي الساعة تدق معلنة انتصاف الليل، تسللت منسحبة أجاهد أصابعي على حملي متوجهة إلى الأسفل، إلى مخزن والدي حرفياً، بحثت فيها جيداً دون أن أثير أي ضجيج، اخترت بعض المفكات ومطرقة ومنشاراً، أي شيء يمكن أن يزيل هذا الشيء، ثم قصدت المطبخ وارتأيت أن أحمل بعض الخبز وقناني الماء ثم عدت إلى غرفتي وأغلقت الباب بإحكام.

أكلت بعض الخبز وشربت الكثير من الماء، فالجوع تمكن مني واستفحل، ثم حملتني أكف مخيلتي طائرة بي بعيداً وأنا أنظر لتلك الأدوات، حملتُ المفك وأدخلته في حرف الخاتم، بينه وبين إصبعي وحاولت أن أزحزحه أو أن أثنيه، قد أهشمه حتى، لكن لا جدوى، إصبعي يؤلمني والخاتم لا يتزحزح، حملت المنشار وثبتُ إصبعي على حرف الكومود، قد أستطيع قطعه، بتُّ أحاول نشر الخاتم بالمنشار، تعب المنشار وتعبت يدي لكن الخاتم لم يتقهقر، حاولت أن أضغط أكثر لكن المنشار انزلق من مكانه وجرح إصبعي جرحاً عميقاً سال منه الدم وبدأ يقطر على الأرض العطشى بسرعة جنونية، صرخت متألّمة وضغطت على الجرح بحافة ثيابي لإيقاف الدم، ولكن انتظروا، أنا لذي فكرة، وهل يعقل أن ينجح الأمر؟! .

بدأت أعد الساعات تلو الساعات منتظرة عطف الشمس علي لتمد لي أذرعها عبر السماء لتنير الدنيا وتضيء دربي، لدي الكثير من العمل، لكنني أحتاج ضوء النهار .

جفاني النوم وبدأت لي دقائق الساعة كقرع الطبول، الطبل الذي هو رأسي لو شئنا الدقة، الساعة الآن الواحدة والنصف، تمر السنين لتصبح الساعة الثانية وبعد قرون تصبح الثانية والرابع، لم أعد أحتمل، توجهت إلى النافذة، رفعت الستائر وفتحت النافذة عن آخرها، هذا أفضل، أشعر الآن أن الشمس ستشرق أسرع .

عدت إلى سريري، نسيم الليل العليل يدعوني لمرافقته، للصحبة.. للغوص في عالم آخر، تتحقق فيها الأحلام أسرع من الواقع، بدأت جفوني تتثاقل، أغمض جفني للحظات ثم أفتحهما بشدة، لا أريد أن أنام، علي البقاء متيقظة، جفوني تزن أطناناً، النسيم البارد يمسك يدي، يجرني، أنا أطيّر أنتظر، كم الساعة الآن !!، إنها الثالثة بعد منتصف الليل، أنا أنزلق إلى ذلك العالم المجهول، النسيم يمد يده، يبعد خصلات شعري عن وجهي، ثم يغمض جفني برفق .

أين أنا !!، أصوات العصافير العالية تصم الآذان، إنها لا ترقزق، بل تتشاجر، يبعد كل واحد منهم صاحبه ويستحوذ على فيء الغصن لوحده، الحرارة تحرق قديمي، ثم جفلت، جلت بنظري في المكان :

أين أنا ؟!

أنا في غرفتي وقد أشرقت الشمس وتسلفت عبر النافذة وبعثت أشعتها الليزرية لتلسع قديمي العارية عن الغطاء، أصوات العصافير عالية فوق الشجرة المواجهة لداري :

كم المدة التي نمتها !!
كأنني غبت عن الوعي
ثم تذكرت :
كم الساعة الآن ؟!
إنها السابعة إلا عشرأ

قفزت من السرير واقفة وقد تبعثر فراشي، لبست ملابسي كيما أتفق وانطلقت أعدو، ها أنا في الشارع متوجهة إلى ميرفت بأقصى سرعة، أود إنهاء الأمر بأسرع وقت ممكن، بدأت أطرق الباب بشدة وددت لو خلعتة، لقد تأخروا في فتحه، وعندما فُتح دخلت البيت، ألقىت التحية وتوجهت إلى غرفة ميرفت مسرعة وقد سمعت والدتها تتمتم ببعض الكلمات خلفي :

ما هذا الجنون الذي أصاب شباب اليوم
حينما كنت في أعمارهم كنت أربي أولادي
كنت كلما طراً طارئاً

تركته دون أن أعيرها اهتماماً، ها أنا في غرفة ميرفت، قفزت فوق سريرها بجنون :

انهضي أيتها الغبية
لدينا الكثير من العمل
ميرفت : ماذا هناك يا أيلاً
لم أنم ليلتي جيداً
كنت أفكر في حل
لكنني لم أجد شيئاً
دعيني أكمل نومي
أيليف : أنا من وجد الحل
قومي هيا

استوت ميرفت جالسة : ما الحل ؟!، أسرع قولي
أيليف : ارتدي أي شيء وهيا بنا
سأحدثك عندما نصل
ميرفت : أين سنذهب ؟
أيليف : ستعرفين

لم تمرّ سوى عشر دقائق وكنا نعدو في الشارع، استوقفت إحدى سيارات الأجرة التي
انطلقت بنا تطوي الطريق خلال ثوان .

وصلنا إلى وجهتي المطلوبة، البحر، فتساءلت ميرفت :

ماذا سنفعل بالبحر ؟؟!

ماذا الآن ؟؟

أيليف : ميرفت، لقد سمعت ما قالتها سكارديا، يجب فصل الخاتم عني، لقد حاولت
الكثير، استخدمت كل شيء يخطر ببالك لكنه لا يتزحج، لم يتبق أمامي سوى حل
أخير
ميرفت : وما هو ؟! .

علي فصل إصبعي بأكمله وعليك مساعدتي

ميرفت : ماذا
لا لا لن تفعلي
لن أستطيع فعل ذلك

انهارت ميرفت وبدأت بالنواح، كانت هناك تجلس على الرمل البارد تبكي وتلطم خديها .

أيليف : بل ستفعلين
سنتمكن من ذلك
هذا آخر حل لدي، علي أن أنقذ نفسي
ميرفت (منتحبة صارخة) : لا لا يمكنني أن أفعل ذلك

رفعتُ يدي ونزلت به على خدّها بأقصى صفعّة يمكنك تخيلها، وبدأت أصرخ في وجهها :

بل ستفعلين
أنتِ من أوقعيني في هذا الشرك
وسوف تساعديني شئت أم أبيت

كانت ميرفت في صدمة، ترتجف وتكتم بكاءها من قسوة الموقف، مددتُ يدي ومسحت دموعها :

عليكِ مساعدتي ميرفت
ألسنا أختين!!
ألم نتعاهد أن نحيا معاً ونموت معاً
إن لم تساعديني، سأرحل عنك
سيأخذني أغاردا

مددت يدي إلى حقيبي وأخرجت المنشار، رفعتها إلى وجهها والدموع تنساب وصوتي يملؤه الإصرار :

سأتحمل .

مدت يدها إلى المنشار وهي تكظم غيض بكائها، ثبتتُ يدي على حرف صخرة من صخور الشاطئ وقلت :

هيا ميرفت تشجعي، أعدك بأن ننتهي بسرعة، ضعي المنشار بين يدي والخاتم وافصلي الإصبع عن آخره، بدأت ميرفت ترتجف كالورقة، فسحبت المنشار من يدها وثبته في المكان المطلوب وقلت :

هيا انشري .

مدت يدها المرتجفة وأمسكت بمقبض المنشار، بلعت ريقها وهربت منها دمعة لتبلل رمل الشاطئ العطش، ثم بدأت تحركه، كنت أتألم.. أتألم بشدة، الدم يسيل، هي تبكي وتصرخ ألماً وكأنهم ينشرون قلبها، وأنا أصرخ بشدة، تنشر وتنشر والدم يتطاير ليغرق كلينا، بكاء وصراخ ثم انفصل الإصبع، سقط أرضاً وأنا ضممت يدي على صدري ولففته ببعض الأقمشة التي أعدتها مسبقاً، سقطت ميرفت أرضاً وأفرغت معدتها وهي تنتحب ثم غابت عن الوعي .

كنت أرتجف، أتألم بشدة، حاولت النهوض لكنني سقطت في كل مرة حاولت فيها، ساقاي كأعواد المعكرونة لا تقويان على حملي، لا أعلم كيف وصلت إلى البحر، وضعت يدي المجروحة في مائه، تغير لون البحر وأصبحت كل قطرة تخبر جارتها باللون الزائر الجديد، برق الرعد في السماء المشمس فرفعت رأسي لأجد الضباب يجتمع، إنها قادمة ..

تشكل الضباب على هيئة أنثى بقوامها الممشوق ولكن بأبشع وجه يمكن أن تراه عيناك، لكنها هي، ديكا، أنا أعرفها، كانت تقف هناك، تصفق وتصفق :

ها قد فعلت !!
أحسنيت أيليف
أنتِ شجاعة بالفعل
لقد أنقذت نفسك وبنات جنسك
فليتزوج أغاردا واحدة منا لو أراد أن يتزوج ثانية
لكنك ستندمين يا أيليف.. على هذا التحدي ستندمين
لن يقف في وجهنا أحد ثم يعيش هائلاً
ستندمين

ثم بدأت تتلاشى، أبعدت نظري عنها ورميت قطع القماش التي تلونت بدمي وارتوت، وقطعت أخرى من ملابسني وشدت على إصبعي المقطوع، وقفت مترنحة، لقد فقدت الكثير من الدم، توجهت إلى حيث ميرفت، قرصت خديها مع بعض

الصفعات فأفاقت، وما إن فتحت عينيها حتى احتضنتني بقوة وبدأت تنشج من جديد :

أنا آسفة يا أيلأ
أنا آسفة

مسحت على شعرها وضممتها بشدة :

انسي الأمر ميرو انسي الأمر .
هيا ساعديني في دفن هذا الإصبع مع الخاتم في مكان لا يصل إليه بنو الإنس ولا بنو الجان .

بدأت أتماثل للشفاء، مر بضع أيام على الحادثة، صحيح أن جرحي لا زال نشطاً، لكنني أحسن بكثير، أشعر أنني ولدت من جديد .

قررت زيارة الحاجة جيرن لأزف إليها البشرى، لكنني ما إن وصلت إلى القرية، حتى عرفت أنها فارقت الحياة منذ أسبوع،
" أسبوع !! "

أي بعد الحادثة بيوم، يبدو أنهم أخبروها فأغمضت عينيها في راحة، زرتها في قبرها وحملت إليها بعض الزهور، جلست قريبا مطولاً، تحدثت إليها.. تبادلنا الحديث وضحكنا ثم عدت أدراجي .

صرت أقضي يومي بين الذهاب إلى الجامعة أو زيارة مراد في قبره، لقد اشتقته كثيراً، لا أرى أحداً أنسب منه ليكون رجلي، يبدو أنني سأعيش على ذكره للأبد .

ذات ليلة (10)

انتهت رحلة تلك الليلة على خير وانتهت معها معاناة أيليف مع خاتمها الملعون، عدنا أدراجنا في اليوم الثاني مع غروب الشمس وتلون السمراء بدم

قابيل، تركت بيلا تحت سلالم منزلها على مضض ويممت وجهتي إلى المنزل، أريد أن أنام وأهناً بالمنام، سأنام نوماً يربو على السنة أو أكثر بقليل، سأغوص في أعماق مستويات النوم.. لأن النائم دون صراع أفكار ينام نوم الطفل الرضيع، ينام نومة أهل الكهف.

أدرت المفتاح في عقب الباب ودخلت، كان والدي هناك يرتكز على عكازه منتظراً قدومي في شغف، أهداني بسمة دافئة وأردف :
أين كنت ليلة البارحة يا ولدي؟
رغيد : لقد عشنا يوماً مربعاً في عرض البحر يا أبي لكني أود أن أؤف لك البشارة، لقد تيقنت بحبي يا أبي، لقد أدركته أخيراً، قررنا أن نمضي معاً.

كتم والدي ابتسامته وعدل نظارته قائلاً :

نحمد الله الذي رآف بحالك وأوجد لك سبباً كي تنام، كلُّ بعض المعجنات التي أرسلتهم لنا زوجة الحاج محمود، سأتوجه للنوم، هل تريد شيئاً؟

رغيد : لا يا والدي، لا أود شيئاً، فلتصبح على خير.
الأب : تصبح على خير.

سحب والدي قدميه خلفه متوجهاً نحو غرفته ثم أضاف:
لقد تذكرت، هناك صندوق صغير لك موضوع على الكومود وصل عبر البريد اليوم صباحاً، معها ورقة بلغة غريبة جداً لم أفهم منها شيئاً.

تعجبت مما قال، لأن معلماً فاضلاً يجيد 5 لغات عالمية مثل والدي استعصت عليه لغة فهذا عجيب فعلاً، فكيف علي أن أقرأه وأنا لا أجيد سوى العربية والإنكليزية فقط.

توجهت إلى الكومود فوجدت صندوقاً خشبياً جميلاً مزخرفاً بعناية بخطوط دقيقة وأشكال مبهرة، فتحت الصندوق لينعكس في عيني بريق ضوء يشع فيسبي العينين، ضممت عيني خلف ساعدي وحين فتحتته وجدت خاتماً غريباً في شكله يخلب الفؤاد جماله ومعه ورقة مكتوب فيها :

(هل هذا الخاتم الذي كنت تقصده ؟!)

..... تمت بحمد الله

